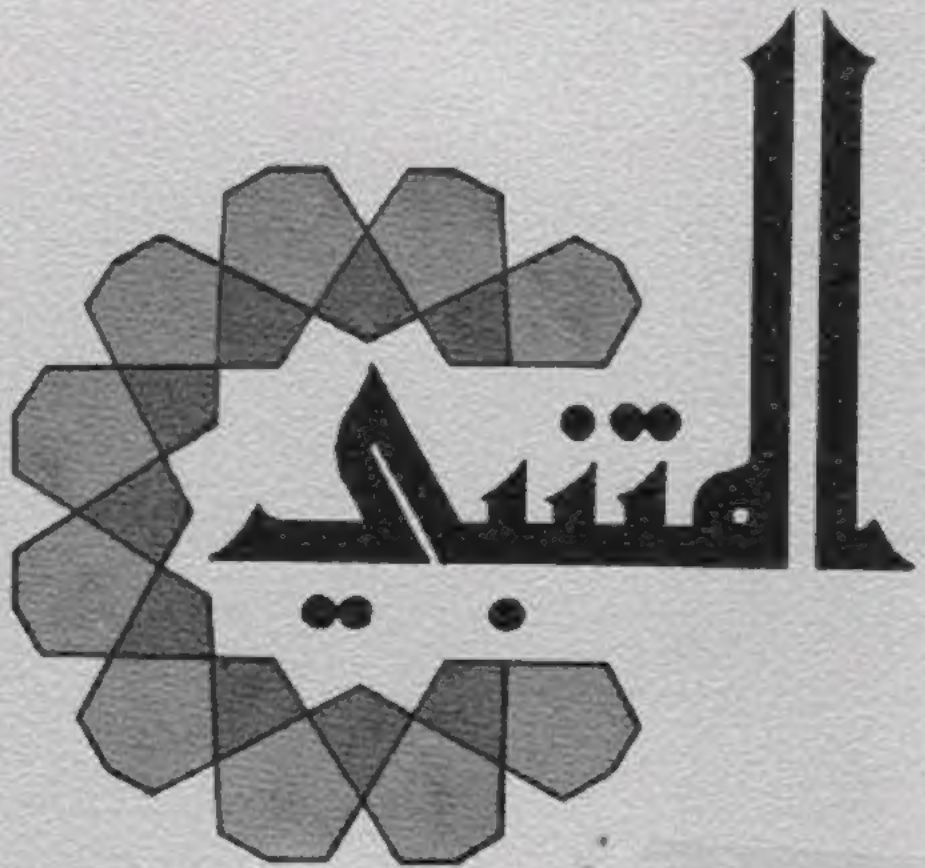


الطبيعة عند المتنبي



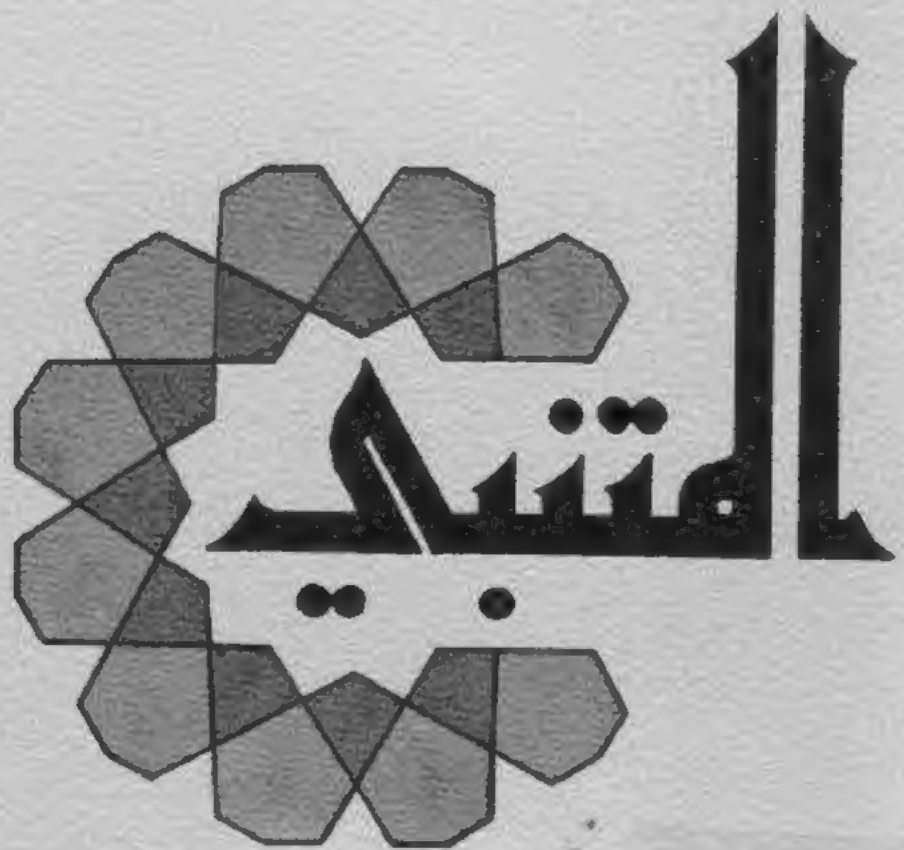
د. عبد الله الطيّب

زورنا في
الفيس بوك

المرتضى
مكتب السودان

www.facebook.com/sh143a

الطبيعة عند المتنبي



د. عبد الله الطيّب

Figure 1. Schematic representation of the experimental design. The subjects were divided into two groups: the control group (CG) and the experimental group (EG). The CG was divided into two subgroups: the control group (CG) and the control group (CG). The EG was divided into two subgroups: the experimental group (EG) and the experimental group (EG). The subjects were divided into two groups: the control group (CG) and the experimental group (EG). The CG was divided into two subgroups: the control group (CG) and the control group (CG). The EG was divided into two subgroups: the experimental group (EG) and the experimental group (EG).

بغداد - تشرين الثاني ١٩٧٧

وأحب إلى أن يقال أبو الطيب • وما أريد بقولهم المتنبي أول الامر
 الا النبز والعيب ، فصيحه الاستعمال ، وما كان لشعره من سيورة
 وشهرة ، له كالحلية ، وذكر ابن خلكان ان بعض المغاربة كانوا يقولون
 (المتنبي) كأنهم يشيرون بذلك الى ما صار للقبه من دلالة على الفطنة
 وكشف ستار طبائع النفوس ، مكان دلالة الأولى على دعوى النبوة •
 هذا ، وقولنا الطبيعة نعني به ظاهر معنى هذا اللفظ ، لانتعمق
 وراء ذلك بشيء والله دره أبي الطيب إذ يقول :

أَبْلَغُ مَا يَبْلَغُ الْمَرَادُ بِهِ الطَّبَعُ
 وَعِنْدَ التَّعَشُّقِ الزَّلُّ

فمن ظاهر معناه صفات الأمكنة والأزمنة من أجواء وفصول
 وشمس وأصيل وقمر وليل ونجوم والحيوان بريه وبحريه
 وجويه ، وزعم الدكتور زكي مبارك رحمه الله في بعض ما كان يناقش
 به الدكتور أحمد أمين رحمه الله أيام الرسالة في سنوات الأربعين أن
 الغزل من باب الطبيعة لأن جمال النساء من مفاتيح الطبيعة ذروة
 - ولا يخلو مقاله هذا من صواب باية ما كان كثيراً ما يقع وصفاً
 الرياض والغيوث في معرض ذكر الطلول ووقفات بكاء العشاق
 وصفات الظعائن الحسان كآيات ليد :

فَعَلَا قُرُوعُ الْأَيْقَانِ وَأَطْفَلَتْ
بِالْجَلْهَتَيْنِ فَبَاؤُمَهَا وَنَعَامَهَا
وآيَاتُ عُلُقَمَةٍ :

تَسْقَى مَذَانِبًا قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا
حَدُورُهَا مِنْ آتَى الْمَاءِ مَطْمُومٍ
وآيَاتُ عُنْتَرَةٍ :

أَوْ رَوْضَةٍ اتَّقَا تَضَيَّنَ ثُبَّتْهَا
غَيْثٌ قَلِيلٌ الدَّمْنُ لَيْسَ بِسَعْلٍ
وَكَانَ ذُو الرِّمَةِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ رِبَا مَزَجَ بَيْنَ أَوْصَافِ النِّسَاءِ
وَالطَّبِيعَةِ مَزْجًا فَصَارَ بِذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ التَّصَوُّفِ . وَفِي شِعْرِهِ تَأْمِلُ
وَعَمَلٌ كَثِيرٌ وَيَعْجِبُنِي قَوْلُهُ :

ذَكَرْتُكَ أَنْ مَرَرْتُ بِهَا أَمَّ شَادِنٍ
أَمَامَ الْمُطَايَا تُسَرِّبُهُ وَتُسْنَحُ
مِنَ الْمُؤَلِّفَاتِ الرُّمْلُ أَدْمَاءُ حُرَّةٌ

شُعَاعُ الْفُشْحَى فِي مَتْنِهَا يَتَوَضَّحُ
وَهَذَا صُورَةُ الطَّبِيعَةِ وَرَمَالُهَا وَتَأَلَّقَ الشُّعَاعُ عَلَى مَتْنِهَا
أَوْضَحُ مِنْ صُورَةِ الْمَلِيحَةِ ، وَصَارَ ذُو الرِّمَةِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ إِلَى
تَجْوِيدِ وَمَزْجِ بَيْنِ الطَّبِيعَةِ وَالْمُرَاةِ أَقْوَى فِي قَوْلِهِ :
بِرَّاقَةٌ الْجِيدِ وَاللُّبَاتِ وَاضِحَةٌ
كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ أَفْضَى بِهَا لَيْبٌ

بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عِقْدٍ
عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَسْبَاطُ وَالْهَدَبُ

صُورَةُ بَرُوزِ الظَّيْفَةِ مِنْ كُثْبَانِ الرَّمْلِ وَاضْوَاءِ الْأَصِيلِ
وَضُرُوبِ نَبَاتِ الطَّرْفَاءِ وَالشَّجَيْرَاتِ ذَاتِ الْوَرَقِ السَّبْطِ ههنا
بَيِّنَةُ الْأَبْعَادِ وَالْمَعَالِمِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تُخَالِطُهَا مَعَانِي الْغَزَلِ فِي هَذِهِ
الآيَاتِ : اللَّبَاتُ الْوَاضِحَةُ وَالْجِيدُ الْبَرَّاقُ مِنَ الْمَرْأَةِ •

وَأَتَمَّ ذُو الرِّمَةِ إِحْكَامَ الْمَزْجِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ الْبَشَرِيِّ
فِي قَوْلِهِ :

كَأَنَّ عَمُودَ الْفَجْرِ جِيدٌ وَلَبَّةٌ

بَعِيدٌ الدَّجَى مِنْ حُرَّةِ الْوَجْهِ سَافِرٍ

ههنا صُورَةُ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ بَرُوزَ سَافِرَةِ الْوَجْهِ عَلَى رَأْسِهَا
الْخِمَارُ وَجِيدُهَا وَلَبَاتُهَا مُشْرِقَةٌ " وَمِنْ حَوْلِهَا سَوَادٌ " • وَصُورَةُ
أَوَّلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ بِنُورِهِ النَّاعِمِ الْمَخَالِطِ الظَّلَامِ وَشَفَقِهِ الْمَمْزُوجِ
الْبَيَاضِ بِالْأَرْدُجِ وَأَنْوَاعِ الْبُحْبُوحِ بِرُوزِ الْأَفَاقِ بِنَبَاتِهَا وَسُھُولِهَا
وَرُبَاهَا ••

شَدَّ مَا تُشَبِّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لَوْحَةَ لِينَارْدُو دَاقْنَشِي الَّتِي سَبَّاهَا
(الضَّاحِكَةُ) أَوْ (الْبَاسَةُ) (لَاجِيو كَنْدَا) •

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْمُرءُ هَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَوَارِدِ الْخَوَاطِرِ كَمَا يَقَعُ
الْحَافِرُ عَلَى الْحَافِرِ ، أَمْ وَقَعَ إِلَى لِينَارْدُو دَاقْنَشِي بَعْضُ مَا تُرْجِمُ إِلَى
اللاتينية أَوْ عَنْهَا مِنْ شِعْرِ غِيلَانِ • ؟

وَيُخَيَّلُ إِلَى الْكَثِيرِينَ ، وَهَذَا مِنْ بَعْضِ مَا دَفَعَ الدُّكْتُورَ زَكِيَّ

مبارك رحمه الله الى الغضب وحيازة باب الغزل كله الى الطبيعة ، أن
موضوع أشعار الطبيعة فن اختص به الافرنج ، وقصر فيه
العرب ؛ فهب شوقي رحمه الله في :

آذار أقبل قم بنا يا صاح
وغيره يستدركون ذلك .

والتأمل ربما صحَّ عنده ان اوصاف البساتين ، وهي التي حلت
محَلَّ اوصاف الأبل والقمار في المطالع والنسيب كما لاحظ ابن رشيق ،
قد كان لها اثر كبير في أشعار الاوربيين ، ممَّن عرفوا العريضة
فقرأوها في أشعار الاندلس مثل كلمة ابن الخطيب :

جاءك الغيث إذا الغيث همي

يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكن وصلك الا حُلماً

في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى

تنقل الخطو على ما يرسم

زماً بين فرادى وثنى

مئلاً يجلثو الوفود الموسم

والحيا قد جلل الروض سناً

فتغور الدهر منه تبسم

وأشعار ابن زيدون وابن خفاجة ، بكنه المشاركة من أمثال الصنوبري

وأبي عبادة وابن الرومي وأبي تمام .

وَأَلْفَيْتُ النَّظَرَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَيْسَ إِلَّا ، إِلَى قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ
الْأَنْجَلِيزِيِّ أَنْدَرُو مَارْقِيل (١٦٢١ - ١٦٧٨) الَّتِي أَسَمَاهَا (خَوَاطِرٌ فِي
حَدِيقَةٍ) (Thoughts in a garden) فَإِنَّ أَوَّلَ مَا اسْتَهْلَاهَا بِذِكْرِ النَّخْلَةِ وَلَيْسَ
فِي بِلَادِهِ نَخْلٌ ، وَالظِّلُّ الَّذِي وَصَفَهُ أَوَّلَ الْأَمْرِ ظِلُّ نَخْلَةٍ - ثُمَّ قَالَ إِنَّ خِلَاطَ
النَّاسِ لَيْسَ بِشَيْءٍ إِذَا قِيسَ إِلَى الْوَحْدَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْخُلُوصِ مِنْ دُنْيَا الْمَجْتَمَعِ
إِلَى فِكْرَةِ خُضْرَاءٍ فِي ظِلِّ أَخْضَرٍ •

Society is all but rude
To this delicious solitude
Annihilating all that's made
TO a green thought in a green shade

وَشَبَّهَ هَذَا بِقَوْلِ أَبِي الْعَلَاءِ لَا يَخْفَى :
ذَرَانِي وَكُتْبِي وَالرِّيَاضَ وَوَحْشَتِي
أَكُونُ كَوَحْشِيٍّ بِإِحْدَى الْأَمَالِسِ
يُسَوِّفُ أَزْهَارَ الرَّبِيعِ تَعْلَةً
وَيَأْمَنُ فِي الْبَيْدَاءِ شَرَّ الْمَجَالِسِ
وَقَوْلُهُ الظِّلُّ الْأَخْضَرُ فِيهِ نَفْسُ أَبِي تَمَامٍ حَيْثُ قَالَ :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرِيكُمَا
تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصُورُ
تَرِيَا نَهَارًا مَشْمَا قَدْ شَابَهُ
زَهْرُ الرِّبَا فَكُنَّا هُوَ مَقْمَرُ
فَكُنَّا هُوَ ظِلُّ أَخْضَرٍ •

وأوضح من هذا شبه قوله :

What wondrous life is this I lead
Ripe apples drop about my head;
The Luscious clusters of vine
Upon my mouth do crush their wine;
The nectarine and curious peach
Into my hands themselves do reach;
Stumbling on melons as I pass
Ensnared with flowers, I fall on grass.

بوَصَفَ ابن الرنومي للرازقي وأوصافِ ابي الطيّبِ لشار
شعْب بوان :

لها ثمرٌ تشـيرُ اليك منه

بأشـربةٍ وقـن بلا أواني

وكم يود المرء لو تفرغ بعض طلاب العربية لدرس اللاتينية ليطلعوا
على ما تُرجم من أشعار العربية وميراث آدابها ذي الكنوز وأخذه من
بعده الأفرنج أخذاً من دون اعتراف أما جهلاً أو عامدين • ويُنسب
أكثر افتتاح الأفرنج بالطبيعة في القرنين الماضيين إلى الحركة الرومانتيكية
والى تأثير جان جاك روسو ، وما خرج هؤلاء عن مذهب من سبقوهم إلا
بأنهم روجوه روسو من مذهب قوة العاطفة والانفعال ازاء الطبيعة انفعالا
لا يخلو من روح تصونف لعله اسلامي المعدن والسَّخ في اصله ، وفي
تأملات روسو وهو يمشى منفردا وبعض ما جاء في اعترافاته ما
يشعر بذلك •

هذا ولقّت نظري من أشعار الانجليز الرومانتيكيين ومن اليهم بوجه

خاص قصيدة كيتس عن البلب (١٧٩٥ - ١٨٢١) فقد استشهد بذكر الهم
والخمر على النحو الذي كان يصنع شعراء العرب في مطالع النسيب القديم
وقصيدة وليه بلاك (١٧٥٧ - ١٨٢٧ م) يذكر النمر .

Tiger, tiger, burning bright
In the forests of the night

يا نَمْرُ يا نمر ..

ذا اللهب الوهاف ...

في غابات الظلام

ثم وصف خطا النمر وذراعيه وجبرونه (وحين أخذ قلبت في
الوَجيب ، يا لسَّاعد .. ويا للقدم ... الرَّهيب) *

لا شك ان وليه بلاك Willam Blake على ما ينسب اليه من الاصاله
والرومانسية الفذة قد اطلع على ترجمه من كلمة ابى اضيب النادرة :

وَرَدَ اذا وَرد البحيرة شارباً

وَرَدَ الفراتَ زئيره والنَّيلا

ما قوبلت عيناه الا ظنَّنا

تَحْتَ الدجى نَارَ الفریق حولاً

بَطَأُ الثَّريَّ مرفقا من تبه

فكأَنَّه أَسْرَجُ جُسرٍ عليلاً

ويرد عثرته الى يافوخه

حتى تصير لرأسه إكليلاً

وتظننه ممّا يُزَمِّجُ نفسه

عنها لشدة غيظه مشغولاً

قَصْرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَا فَكَأَنَّا
 رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا
 الْفَى فَرِيَسَتَهُ وَبَرَبْرَ دُونَهَا
 وَفَرِبَتْ قُرْبًا خَالَهُ تَضْفِيلاً
 مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ
 حَتَّى حَسِبَتْ أَعْرَضَ مِنْهُ الطُّولَا
 أَسَدٌ يَرَى عَضْوِيَهُ فِيكَ كِيَهُمَا
 مَنَّا أَزَلَّ وَسَاعَدَ مَتَّسُولَا
 وَيَدُقُّ بِالصُّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ
 يَبْغَى إِلَى مَا فِي الْحُضِيضِ سِيلاً
 أَنْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكٌ
 فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قِيلاً
 وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
 مِنْ حَتْفِهِ مِنْ خَافَ مَا قِيلاً

والذي يدعو الى هذا الظن ما في قصيدة وليم بلالك من تتبّع معاني
 أبى الطيب في صفة عيني الأسد . وهيئة نبهتسيه بمتيسته وتجمعه
 وزمجرته ليثب وشجاعة قلبه وقلة اكتراته بالعدد الكثير ونوكهشم ابى
 الطيب ان عنده معاير من قضايا النبدر الذي بأبى الدنبة من مضض
 العار ****

What immortal hand or eye
 Could frame thy fearful symmetry

هذا كأنه اختصار قول أبي الطيب :

حتى حَسِبْتَ العَرَضَ منه الطولا

In what distant deeps or skies

Burnt the fire of your eyes

..... burning bright

In the forests of the night...

وهو تكرار لقوله الأول

وقوله الذي ترجمته (غابات الدجى) أو (غابات الظلام) إنما هو من

قول أبي الطيب (تحت الدجى) .

وحاء وليهم بلاك حول معانى الحكمة التي عند أبي الطيب بنوع من

جَهْدٍ وتكلف غوص .

What the hammer? What the chain?

In What furnace was thy brain

وتكرار معنى النار لا يخفى ، والخطابة التي في الاستفهام قبل جوفاء

ذات قعقعة ليست في مستوى ما تقدمها

ثم أي مخ للأسد ؟ ... إنما هو قلبه الباسل ولو كان معه مخ

لكان ما قال أبو الطيب في غير هذه القصيدة :

لَوْ لَا اعْقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَبْعٍ

أَدْنَى إِلَى شَرْفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

هذا ومثله هذا التوافق والتوارد على الخواطر يَعْسُرُ أَنْ يُظَنَّ

فيه أنه لم يَنْظُرْ فيه الآخر وهو وليهم بلاك الى الأول وهو أبو الطيب .

وقد نَعَلِمَ أَنَّ علوم العرب وآدابهم كانت تَتَرَجَّمُ وبُليهم بها ولو

الثقافة في اوربا - ومن حسب أنه انما كان يُتَرَجَّم الطَّب والتمسفة
والرياضيات والفن وما إلى ذلك ولا يُؤْبَهُ لى الأَدبِ فهذا وهم •

وقد ذكر الكاتب الفرنسي ستندال (Stendhal) - (١٧٨٣-١٨٤٢)
في احدى هوامش كتابه عن الحب في معرض الحديث عن عشق العرب وجيل
بشينة أن رجال الفكر الاوربيين لما وجدوا آداب العربية . مع الذي كان من
معرفة العرب بعلم يونان . لا تحاكي اساليب اللاتينية وآداب اليونان القديمة .
احتقروها واعرضوا عنها مع كثرة المخطوطات منها في باريس • ولعسري ان
في هذا الذي قاله لدليلا على ضلالتهم عليها • ولم يكن هو أول من فعل ذلك .
وفي ترجمته ما يفيد ان أول معرفته عن عشاق العرب كان عن ضريق حد
مدرسيه •

واذ ثبت اطلاع مفكري الافرنج على آداب العربية فما ندبه اساليب
روائعها من روائعهم فعنها أخذوه . ولا نتفقت لما ظهره من اعراض
واحتقار فما كان ذلك الا دعوى وجوداً • واحتججان صبيحة على
الأرجح ، والله تعالى أعلم •

هذا واذ نحن بمعرض الحديث عن الأسد . فقصيدة البحري التي
بوازن بينها وبين قصيدة أبي الطيب . مع وصفها غيب الأسد وانظر المحيط
به كانت أشد حرصا على اظهار بساطة الممدوح ومهارته بالسلاح وفنون
القتال :

هزبراً مشى يَبْغِي هَزْبَرًا وَأَغْبَا

من القوم بَغْشَى بِاسِلِ الْوَجْهِ اغْبَا

حَسَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفُ لَا عِزَّكَ أَتَيْتُ
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدَّه نَبَا
لَكِنْ أَبَا الطَّيِّبِ مَعَ ذِكْرِهِ بَدْرُ بْنُ عَسَارٍ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَقَوْلِهِ
فِيهِ :

أَمْغَفَّرَ الْأَسَدُ الْهَزْبُورَ بِسَوِّطِهِ
لَمَنْ أَدْخَرْتَ الصَّارِدَ الْمَصْقُولَا
(وَلَا شَيْءَ أَنْ بَدْرًا أَطْرَبَهُ هَذَا الْمَدْحُ) إِنَّمَا كَانَ إِعْجَابُهُ بِالْأَسَدِ . هَذَا
الْحَيَوَانُ الْفَذُّ الشَّجَاعَةُ الْبَاهِرُ الشَّرَاسَةُ . الْبَاسِلُ مَنْظَرُ الْوَجْهِ •
وَمَعَ أَنْ ظَاهَرَ قَوْلُهُ :

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كَيْهَمَا
مَتْنًا أَزَلَ وَسَاعِدًا مَفْتُولَا
كَأَنَّهُ فِي صِفَةِ جِسْمِ بَدْرِ بْنِ عَسَارٍ الرِّيَاضِي ذِي الْعِضَلَاتِ ، لَكِنْ بَاطِنُهُ
فِي صِفَةِ الْأَسَدِ إِذِ الْمَتْنُ الْأَزْلُ وَالسَّاعِدُ الْمَفْتُولُ هُمَا عُضْوَا الْأَسَدِ وَالَّذِي عِنْدَ
بَدْرِ بْنِ عَسَارٍ شَيْءٌ " يُشَبَّهُ بِهِمَا . فَتَأْمَلُ •
وَأَحْسَبُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ لَمْ يَخْلُ مِنْ اسْتِشْعَارِ تَوَعُّرِ سَمَاجَةٍ فِي
مَمْدُوْحِهِ الْإِنْفَاطِكِيِّ إِذْ قَالَ :

لَمْ تَفْتَقِدْ مِنْ غَيْثٍ سِوَى لَشَقٍّ
وَلَا مِنَ الْبَحْرِ غَيْرَ الرِّيحِ وَالسَّفْسَفِ
وَلَا مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا قُبْحَ مَنْظَرِهِ
وَمِنْ سِوَاهُ سِوَى مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

وهل قبح الليث الا أن منظره مخيف ؟

القي فريسنه وبربر دونها

وقربت قريبا خاله تظيلا

أسد يرى عضويه فيك كليهما

متنا أزل وساعدا مفتولا

ووصف أبي الطيب للفرس والفرس بعُد لا يخلو من إشعار

بضعفهما ازاء هذا « الخبعتينة الشجيع » - ولعلته ما غلبه الا كثرة

العدد عيه من كل جانب - نأمل قوله :

فصرت مخافته الخطى فكأثما

ركب الكسي جواده مسكولا

أليس فيه إشعار بخوف الفارس كما قد خافت فرسه الضامئة

الفصوص التي :

يأبى تفردوها لها التمثيلا

هذا وذكر « اللثق » الذي مر آنفا ما أرى أبا الطيب قصد بذكره

تفضيل صاحبه على الغيث كما قد قصد الى إثبات تجربة أحسنها من

خبث اللثق - وهو الطين المزج اندي نصيره الارض الزراعية غير

ذات الرمل بعُد المطر - وساجة الوحل فيه • وقد يجود الغيث

ولا يكون معه لثق •

وشبه بذكره اللثق ، ذكره الريح والسفن إذ معنى ذلك الدوار

ولعله عاناه في بعض اسفاره والله أعلم • وهذا وأبو الطيب عسيق الاعجاب

بجنس الأسد وقوله :

كل غاد حاجة يتمنى
بنفارسن جهرة واغتيالاً
من أطاق التماس شيء غلاباً
وغتصباً لم يلتسه سؤالاً
كل غاد لحاجة يتسنى
ان يكون الغضننر الربلاً
فيه تأويل جانب كثير من هذا الاعجاب . إذ الناس سبع والأسد
أصرح وأنبل سبعية منهم ومن قدر على أن يكونه في القوة
والإفداء والهيبة كأنه لا يتردد . وعند نفسه كان أبو الطيب أسداً
- كما قال :

فارم بي ما أردت مني فإني
أسد القلب آدمي الرواء
وقريب منه فوله من قبل :

وجاهل مدء في جهله ضحكى
حتى أتته يد فراسة وفهم
إذا رأيت ثيوب الليث بارزة
فلا تظن أن الليث يتسم
فدل بهذا على المكتمن في نفسه من أن صاحب القلب الاسدي أسد له
انياب وأظفار فلا عجب أن استشعر نحوه سدوحوه كل حذر .
وهو القائل يطلب حلف أسد الفراديس :-

أجارك يا أسد الفراديس مكرم
فتسكن نفسي أم مهان فمستلم
ورائي وقدأى عداة كثيرة
أحاذر من نص ومنك ومنهم

فهل لت في حِلْفِي على ما أُريدُه
فأني بأَسبابِ المعيشة أعلم
ولم يخل في هذا من ظرٍّ إلى كلسه القَتَّالِ الكلابي حيث زعم أنه
صَحِبَ النسر في الغار:

ولي صاحبٌ في الغارِ هدءك صاحباً
هو الجَوْنُ إلا أنه لا يُعَلَّلُ
إذا ما التقينا كان جُلَّ حديثنا
صُغَاتٌ وُطِرْفٌ كالمعايلِ أَصْحَى
فأغلبه في صَنَعَةِ الزادِ إنني
أُمِيطُ الأذى عنه وما إذْ يَهْلَلُ
وكأنَّ عِيَّاتِ القَتَّالِ هذه من فُكاهاتِ العربِ ونوادِرهم
وأكاذيبهم كالذي زَعَمُوا من نَزَوجِ السَّعْلاةِ وقِتَالِ الشَّقِّ
والغولِ .

ويقول أبو الطيب :
ومن يَجْعَلِ الضَّرَّ غامَ بازا لَصَيْدِه
تَصَيِّدَه الضَّرَّ غامَ فيمَا تَصَيِّدَا
فما كان يَغِيبُ عنه استحالة حِلْفِ أَسَدِ الفَراديس . ولكنَّه
كما قال :

تَمَنَّيْ يَدُ اسْتِهَاءِ بِذِكْرِه
وان كان لا يُجْدِي فتيلاً ولا يُجْدِي

وَعَظِظَ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى

ولكنه غيظ الأسير على القدر

وقد نَعَلِمَ قِصَّةَ نَاسِكٍ كَلِيلَةٍ وَدِرْمَةٍ إِذْ أَصَابَ فَأَرَةً صَغِيرَةً
فَدَعَا اللَّهَ أَنْ تَصِيرَ أَدْمِيَّةً حَتَّى يَقْدَرَ عَلَى تَرْبِيتِهَا فَلَمَّا شَبَّتْ وَارَادَ
تَرْوِيجَهَا لَمْ يَجِدْ لَهَا مِمَّا يَعْجَبُهَا كَفْئًا إِلَّا الْفَارَ فَدَعَا اللَّهَ أَنْ تَكُونَ فَأَرَةً •
وقد نعلم إعجاب الرومان بتكبين ووليه بلاك منهم - بيدأوة الأعراب
وتوحشهم •

فلعل هذا الإعجاب دفعه وهو لا يشعر إلى أن يحوّل ما أصاب
من صفة الأسد في الذي بلغه من شعر المتنبى أو ما ترتّب بعُد
تأثيره أو حُدَى فيه على أسدوبه . فيجعله في لُسر :

Tigre, tiger, burning bright

In the forests of the night.

وما عَرَفَ أَوْ أَبَهَ أَنْ نَمِرَهُ مُخَطَّطٌ . وهو ضَرْبٌ مِنْ وَحُوشِ
بِلَادِ الْهِنْدِ . وَأَنَّ نَسِيرَ الْعَرَبِ ذُو نَقْطٍ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ نَسِيرَةٌ يَعْشُونَ
الثوب ذا النقط والالوانِ وإياه عنى ابن مالت حيث قال :-

وَلَا يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ بِالنَّكِيرِ مَا لَمْ تَقْدِرْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهُ

ولعله لو فطن إلى ذلك لكان سى كلسته هذه بالأسد مكان النمر ،
أم تراه عبداً أثر تسميتها النمر بقصد التعسية وليخفى مكان أخذِه حيث
أخذ من أبي الطيب ؟ هذا ومن عجيب أمر لامية الأسد هذه قوله :

سَمِعَ ابْنُ عَتَةَ بِهِ وَبِحَالِهِ

فَنَجَا يُهَرَّوْنُ أَمْسَ مِنْكَ مَهُولًا

ولست الهرولة بأسرع الجري . كالذي يقع عند الفرار من مطاردٍ .
ويذكر أصحاب الصيْدِ ومعرفة الوحوش أن الأسد اذا قتلَ بسوْخٍ
سارعت الأسود الى الاقتتال منه تَسْتَوْبِئُهُ .

وأمره ما فرَّ منه فراره وكفَّته الأء يسون قتيلاً
وكأنَّ هذا يقوله على لسانِ الأسد الذي استوبأ المكان فانتقل عنه :
تَلِفَ الذي اتَّخَذَ الجِراءَ خُطَّةً
وعظ الذي اتَّخَذَ الفِرارَ خَيْلاً

وهذا كارتداء للأسود عمة ، أنها مع شجاعتها وقوَّة اجسادها لا نفوى
على مكر الانسان واحتياله واغتياله . وهل قتلْتُ أَسَدَ اللامية الا
وثبته . حيث تنقته الرماح . فنزف ثم :

خذلته قُوَّته وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضتْ مَنِئْته يَدَيْهِ وعُنَقَهُ فكأنما صادفته مغلولاً
هذا وقال ابن الاثير عن هذه اللامية ولا ميتة التي رثى بها أم سيف الدولة :
نَعِدْهُ المِشْرِفِيَّةَ والعَوائِي وتَقَتَّلْنَا المِوْنَ بلا قتال

إنهما ، كفى بهما شاهد على ما ذكرته من انفراد بالابداع ، والذي
يشير اليه ههنا ما ذكره قوله عند الموازنة بينه وبين الطائيين ولم تأمت
تعره وجدته أقساماً خمسة . خمس في الغاية التي انفراد بها دون
غيره وهي الغاية التي وصف بعض امثلتها في بعض المواضع فقال :
« وهذا الموضع لم يأت فيه أحدٌ بما يثبت على المحكِّ الا أبو الطيب
وحده وأما غيرُه من مُفْلِقِي الشعراء قديماً وحديث فانهم قد قصروا
عنه » هذا مع زعمه أن أبا الطيب أراد ان يسلك مسلك ابي تمام

فَقَصَّرَتْ عَنْهُ خَطَاهُ وَلَمْ يُعْطِهِ الشَّعْرُ مِنْ قِيَادِهِ مَا أَعْطَاهُ » • وَهَذَا أَسْوَقُهُ
لِمَجْرَدِ التَّنْبِيهِ لَا لِأَزْعَمِهِ بِهِ أَنَّ ابْنَ الْإِثِيرِ وَكَقَعَ بِهِ فِي تَنَاقُضٍ • إِذْ لَا رَيْبَ
أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ رَوَائِعَ الْمُتَنَبِّيِ أَجُودُ مِنْ رَوَائِعِ سِوَاهُ وَلِذَلِكَ زَعَمَ أَنَّهُ خَاتِمُ
الشُّعْرَاءِ وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ :

لَا تَسْخَنَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رَوْيَتِهِ
إِنْ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَا خُتُّوَا
وَلَا تَبَالِ بِشِعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ
قَدْ أَفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَفْسَدَ الصِّمَمُ
وَوَيْتَ أَبَا الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَاشَ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا لِيَشْهَدَ كَيْفَ أَفْسَدَ
الْقَوْلُ وَأَفْسَدَ الصِّمَمُ وَجَاءَتْنَا نُمُورُ أَضْرَابِ « بَلَاكِ » الَّتِي كَانَتْ
عِنْدَهُ أَسَدًا •••••

أَسَدًا فَرَأَسُهَا الْأَسْوَدُ يَقُودُهَا
أَسَدٌ تَكُونُ لَهُ الْأَسْوَدُ ثَعَالِبًا
فَصَيَّرْنَاهَا نَحْنُ بِافْتِنَانِ الْمَحَاكَاةِ الْكَاذِبَةِ سَنَانِيرَ •
هَذَا ، وَمَا بَرَزَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذَا التَّبَرِيزُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ الْإِثِيرِ
وَجَزَمَ بِهِ الذَّهَبِيُّ إِذْ قَالَ « لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَحَدٌ أَشْعَرُ مِنْهُ أَمَّا مِثْلُهُ فَقَلِيلٌ » •
بِأَنَّهُ أَدَقُّ الشُّعْرَاءِ غَوْصًا عَلَى الْمَعَانِي أَوْ أَكْثَرَهُمْ تَشْبِيهًا وَاسْتِعَارَةً ، أَوْ
أَخْبَرَهُمْ بِتَوْلِيدِ الْمَعَانِي أَوْ أَشَدَّهُمْ افْتِنَانًا فِي الْأَوْصَافِ ، أَوْ أَرْفَقَهُمْ
غَزَلًا • أَوْ أَقْوَاهُمْ أَسْرَ جَزَالَةِ الْفَاطِظِ ، أَوْ أَجْهَرَهُمْ رَتَّةَ جَرَسِ
غَنَاءٍ • وَأَبْرَعَهُمْ وَشَى صِنَاعَةٍ بَدِيعٍ ••• كُلُّ أُولَئِكَ لَهُ مِنْهُمْ نَصِيبٌ
جَيِّدٌ وَافٍ ، غَيْرَ أَنَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَتَقَدَّمُ فِيهِمْ جَسِيعًا أَوْ فِي بَعْضِهِمْ دُونَ

بعض كالذي ذكر ابن الاثير من أمر أبي تمام حيث قال . هو ربُّ معانٍ وصيقل البابِ وأذهانٍ » . وجعل أبا الطيب دونه في هذا المسك وكالذي ذكره ابن رشيق من تقديم ابن الرومي في باب الغوص على المعاني ونوليدها . وكأنَّ الإجماع قائم بين النقاد على أنَّ ديباجة البحري في المكان الذي لا يُدرَكُ ولذلك قال ابن الاثير إنه اجاد سبك اللفظ على المعنى وأراد ان يشعُر فغنى . وإذن فبماذا برز أبو الطيب ؟ . وأحسب أنَّ ابن الاثير قد وهم في باب موازنته بين لبحري وأبي الطيب في نعت الاسد اذ فضل هذا ثم قال في توضيح أسباب هذا التفضيل : (والبحري وإن كان أفضل من المتبني في صوغ الألفاظ وملاوذة السبب فالتبني أفضل منه في الغوص على المعاني ، ومحلَّ وهمه أن هذه الصفة هي عينها التي قدَّم بها أبا تمام عليه ثم عدل عن تقديمه فيها حيث يكون أبو الطيب انفرد بالابداع وذلك في الخمس الذي نصَّ عليه ولا يمكن ان يكون انفرد به بالابداع بسبب الغوص على المعاني وهو ما خبرنا أنه قد قصرت فيه خطاه عن خطا أبي تمام .

وأقرب إلى الصواب ما ذكره ابن رسبق من أنَّ أبا الطيب كان يهجم على معانيه كالفارس . والحق أن سبب تبريز أبي الطيب هو قوة شخصيته ، وحرارة عاطفته وصِدْقُهُ في البيان عن نفسه . وقد نبَّه ابن جني على هذا المعنى في الخصائص اذ قال عنه : « وما عرفته الا صادقا » . وقد فطن أبو العلاء إلى أمر شخصية أبي الطيب حين اعتذر له في رسالة الغفران عما أخذه عليه ابن الفارج من التصغير فقال بعد ان استشهد بأمثلة منها :

أَذْمَ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلَهُ
وَنَادَى الْخَوِيدَ عَنْ لَيْلِنَا
مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْلٍ عَصْرِ... الخ

(ولا ملامة عليه . انسا هي عادة صارت كالطَّبْع . فسا حَسَنَ بِهَا

مألف الرابع) •

وقد كن أبو الطيب رحمه الله كثير الاسفار • نَنَقَّلَ بَيْنَ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ أَيَّامَ صَبَاهُ وَشَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَقَى سَيْفَ الدَّوْلَةِ • وَقَالَ فِي الْقَصِيدَةِ
الَّتِي مَدَحَ بِهَا أَبَا الْقَاسِمِ الْعَدَوِيِّ :

إِلَى لَعِيرِي قَصْدٌ كُلُّ عَجِيْبَةٍ
كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عَيُونِ الْعَجَائِبِ
بِأَيِّ بِلَادٍ لَمْ أَجُرْ ذَوَائِبِي
وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَأْهُ رِكَائِبِي
وَقَالَ فِي مَرِثَتِهِ لِأُمِّهِ :

لَيْسَ لَدُنَّ يَوْمٍ النَّسَامَتَيْنِ بِسَوْتِهَا
فَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَتْفَهُمْ رَغَا
غَرَبٌ لَا مُسْتَعْظِيًّا غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالْقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ
وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمًا
يَقُولُونَ لِي مَا أَتَيْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
وَمَا تَبْتَغِي مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسَمَّى

وقال يَذْكُرُ فَقْرَهُ وَسَيَرَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ :

وَمَهْمُهُ جُبْتُهِ عَلَى غَدَمِي

تَقْصُرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُّ

بِصَارْمِي مَرْتَدٍ مَخْبَرَتِي

مُجْتَرِيءٌ بِالظَّلَامِ مُشْتَرِسٌ

إِذَا صَدِيقٌ نَكِرَتْ جَانِبَهُ

لَمْ تُعِينِي فِي فِرَاقِهِ الْحِيلُ

فِي سَعَةِ الْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ

وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلٌ

وَتَنْقَلُ أَيَّامُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ يَصْحَبُهُ فِي حُرُوبِهِ وَفِي سَوَى ذَلِكَ مِنْ

ضُرُوبِ ارْتِحَالِهِ وَكَثُرَ مَا كَانَ يَغْزُو سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِلَادَ الرُّومِ : وَرَبَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فَحَارِبَهُمْ فِي الْبَادِيَةِ - مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى

تَخَوْفَ أَنْ تَفْتَشَّهُ السَّحَابُ

فَبِتَّ لَيَالِيَا لَا نَوْمَ فِيهَا

تَخَبُّ بِكَ الْمُسَوِّمَةُ الْعِرَابُ

يَهْزُهُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ

كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَبُ

وَتَسْأَلُ عَنْهُمْ الْفُلُوتُ حَتَّى

أَجَابَكَ بَعْضُهَا وَهُمْ الْجَوَابُ

وفي سفر الغزوات الى أرض الروم يقول مثلاً :

واشتقى بلاد الله ما الرنود أهملها

بهذا وما فيها لمجدك جاحد

شنت بها الغارات حتى تركتها

وجفن الذي خلف الفرنجة شاهد

ومثلاً :

وصوت إلى المستصعبات بخيله

فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا

سريت الى جيحان من أرض آمد

ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا

وبعد طول ملازمته لسيف الدولة سافر الى مصر . وكان بعض سفره

فراراً حثيئاً وإلى ذلك أشار في قوله من قصيدة مدح بها كافوراً :

وجدت أنفع مال كنت أذخره

ما في السوابق من جرى وتقريب

فتن المفوز حتى قال قائلها

ماذا لقينا من الجرود السراحيب

نهوى بسجردٍ ليست مذهبه

لبس ثوبٍ وما كؤلٍ ومشروب

رعى الشجوم بعيني من يحاولها

كأنها سلب في عينٍ مسلوب

وأحسب أنه الى هنا نظر أبو العلاء في قوله :

ولا صَحِبْتُ ذُنَابَ الْإِنْسِ طَاوِيَةً

ثَرَاقِبُ الْجَدَى فِي لُخَضْرَاءٍ مَسْبُوتَا

وقد التَمَعْتُ بهذا المعنى في كتابي (مع أبي الطيب) . وقد كان أبو العلاء رحمه الله كثير الأخذ من أبي الطيب والتسبيق على درَج مراقبه .

وقِصَّةُ فراره من كافورٍ معروفة . وقد ذكرها وذكر الإبلَ البُجَاوِيَّةَ التي اجتاز عليها التَّيَّه في كلمته :

الأكلُ ماشيةً لَخِيْزَلَى فِدَى كُلِّ مَاشِيَةٍ الْهَيْدَى
وَكُلَّ نَجَافٍ بَنَجَاوِيَّةٍ خَنُوفٍ وَمَا بِي حُسْنُ السِّنَى
وَلَكِنَّهِنَّ حِبَالُ الْحَيَاةِ وَكَيْدُ الْعَدَاةِ وَمَيْطُ الْأَذَى
حتى صار الى العراق .

وقد زارَ أرضَ فارس ثم عاد من عضد الدولة وهو يقول :

أرىَ أَسْفَى وَمَا سِرُّهَا بَعِيداً
فَكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ ابْتِرَاكاً

فَزُلْ يَا بُعْدُ عَنْ أَيْدِي رُكَّابِ
لَهَا وَقْعُ الْأَسِنَّةِ فِي حَتَاك

وَأَيَّاءَ شِئْتِ يَا ضَرْفِي فَكُونِي
أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلَاكاً

رووا أن عضد الدولة قال : (تَضَيَّرْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِهِ انْجَاةً بَيْنَ الْأَذَاةِ وَالْهَلَاكِ .)

وقال الثعالبي في نحو من هذا المعنى جعل قافية البيت الهلاك فهتك .
هذا وجميع ما شاهده أبو الطيب وانطبع في نفسه من تجارب أسفاره قد
أفصح عنه بصدق وحرارة عاطفته وقوة شخصيته . فمن ذلك ما
ضمنه التشبيه والاستعارة وصوّرَ البيان مثل قوله :

هو البحرُ غصّ فيه إذا كان ساكناً
على الدرّ واحدَره إذا كان مزبداً

وقوله :

ويُخسى عبابُ البحرِ وهو مكانه
فكيف بمنّ يغشى البلادَ إذا عبأ

وقوله :

هل لحدثِ الحراءِ تعرفَ لونها
ونعم أي الساقيين الغمام
بناها فزعلى والقنا تقرّع القنا
ومواج المنايا حولها متلاطم

فكما في البيتين الأولين صورةُ البحرِ مُزبداً وصورته يغشى
الساحلَ وبضم صخره ورمله وهنا صورة صخرة عاتية وسط
البحر يحيطُ بها صخبُ الأمواجِ وهي الصورة المستعارة لصفة
القلعة وصراعِ الجيوش حولها هنا .

وفوله :

حواليه بحرٌ لتجافيفِ مائجٍ
يسير به طودٌ من الخيلِ أيهم

وههنا أيضا كامنًا وراء الاستعارة إحساس "قوى" باتساع
البحر وعظمته وارتفاع الجبل وشموخه . ولا ريب أن هذا شعور
انطبع في نفس أبي الطيب من مشاهدة جبال لبنان وشواطيء سواحل
الشام . ومما يدل على صحة هذا الذي نذهب إليه قوله مثلاً
يُشَبِّهُ نفسه بالبحر والجبال على نحوٍ من تشبيهه نفسه بالأسد :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَتَنِي

الجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أَتَنِي البحرُ

ومن امثلة ما ضمَّنه التشبيه والصُّورَ البيانية من انضبع نفسي
إزاء بعض مظاهر الطبيعة قوله :

وجيشٌ يُتَنَّى كُلُّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ

خَرِيقٌ رِيَّاحٍ واجَهَتْ غُصْنًا رَضْبًا

فهنا شعور رهبة إزاء خريق الرياح وهياجه . وتأمل
دقيقة لخلق ورَيِّقاتِ الأغصان الخضر الدَّفَقِ النواضر
وهي ترقص وتتنى لهبوب الرياح صغيراتٍ جذلاتٍ في أفراف
الشجرات الكبيرة الثابتات للعصف الشديد من حولهن - كهذا الطود
والجيوش تتخلله كل صخرةٍ ومرٍّ منه كأنسا هي غصن رطب
صغير مهتز .

وبعدَ هذا البيت قوله :

كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ

فمدَّت عليها من عجاجته حجباً

وأحسب أن هذه العجاجة في الحقيقة ما كانت الا حريق الرياح

وافتن أبو الطيب فأشرب ذلك نَفْساً من خير يوم حليلة الذي زعموا أَن
العجاجَ فيه غُصِّي ضَوْءُ الشَّسِ حتى بدت النجومُ وقد عكس أبو
الطيب الصورة كما ترى •

وقوله :

وكانوا يَرُوعُونَ السُّلُوكَ بأنْ يَدَوُّوا

وَأَنْ نَبَتَتْ فِي الْمَاءِ نَبَتَ الْعَلَاقِ

والشاهد هنا صورة العلق وهو ما غلظ من الطُّحْب الطافي

على الماء •

وان يكن أَسَاعِ الصَّحراءِ بِمَنْزِلَةِ بَحْرِ مُسْتَدٍّ • فالمدائنُ وزروعُ أهلِ

الريفِ في أَطرافِهِ وأمرؤُهُمْ وملوكُهُمْ كلُّ ذلك طافٍ كما يطفو الغَلَقُ •

وقوله :

تَعَوَّدَ الْا تَقْضِمَ الْخَيْلُ حَبَّهْ

إِذَا الْهَامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ الْعَلَائِقِ

وَلَا تَرِدَ الْغُدْرَانُ الْا وَمَاؤُهَا

مِنَ الدَّمِّ كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ

وما أَحْسِبُ أَنَّ أَبَا الطيبِ جمع بين صورةِ الرَّيْحَانِ نَحْتَ

الشَّقَائِقِ الْبَهْجَةِ الْجَبِيلَةِ وَصُورَةَ الْغُدْرَانِ عَلَى أَطْرَافِ سَطْحِ

مَائِهَا الدَّمِّ • الْا مُشَاهِدَتِهِ مَنْظَرًا جَمَعَ بَيْنَهُمَا انْطَبَعَتْ صُورَتُهُ فِي

ذِهِنَّه - وَحُسْنِيَّةُ الْحَرْبِ - وَوَدَاعَةُ الضَّيْعَةِ - فَتَأَمَّلْ •

وقوله :

قد سوّدت شَجَرَ الجبلِ شعورهم
فكأنّ فيه مُسِفَّةً الغربان
وجرى عى الورقِ النّجيعُ القاني
فكأنه التّارنجُ في الأَغصان

وملاحظة المناظر الطبيعية - منظر الغربان مُسِفَّةً عى الشجر
مُسَوَّدَةً بين خُضرةِ أغصانه وغيَرانها ومنظرُ التّارنجِ عى
الأغصان - بَيِّنَةٌ ههنا - ولا أرى إلا أنّ أبا الطّيب قد نظر إلى قول
أبى تمام :

ما ربّعُ ميّةٍ معسوراً يُطيفُ به
غَيَّانُ أبهى رُبٍّ من ربّعِها الخرب
ولا الخُدودُ وإن أدْمينَ من خَجَلٍ
أشهى إلى ناظرٍ من حدّها التّرب
سَمَاجَةٌ غَنِيَتُ منا العُيُونُ بها
عن كُلى حُسْنٍ بدا أو منظرٍ عجب

والذي حسّنها الانتصار : ولقوةِ شعور أبى الطّيب به لم يَحْتَجْ
إلى أن يُفسّره كما صنّع أبو تمام .

وقوله :

تلاكُ وبعضُ الغيثِ يتبعُ بعضه
من النّامِ يتلّو الحاذقُ السّتعلمُ

والشاهد هنا منظر تتابع السحاب ، صِغَارُهُ يَتَلَوْنَ كِبَارَهُ وَكِبَرَاهُنِ
المُبرِّقَةُ مِنْ بَعْدِ كَأَنَّمَا تَجْتَذِرُ بَنِينَ اجْتَذَابًا •
وقوله :

لَمَّا قَفَيْتَ مِنَ السَّوَاوِحِلِ نَحُونًا
قَفَيْتَ إِلَيْهَا وَحُسنَةً مِنْ عِنْدِنَا

أَرْجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَرْتَ بِسَوْضِعٍ
إِلَّا أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوطنًا

لَوْ تَعَقَّلَ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلَتْهَا
مَدَّتْ مَحِيَّةً إِلَيْكَ الْأَغصَانَا

هذا الأَرَجُ وهذه الأشجارُ ذاتُ العُصُونِ أتراها مُجَرَّدَ الفَظِّ
أُرِيدَ بِهَا مَعْنَى المبالغة أمْ أوعية شُعُورٍ نابضٍ دى إِيحَاءٍ فَوَى بتجربةٍ
أَحْسَنُهَا الشاعِرُ وانضُبت في نفسه كُتْلُ انضباع ؟
وقوله :

مُنْذُ احْتَبَيْتَ بِانطَاكِيَّةٍ اعْتَدَلْتَ
حَتَّى كَأَنَّ ذُرُيَ الْأوتارِ فِي هَدَنِ

ومذ مَرَرْتَ عَلَى أَطْوَادِهَا فَرَعَتْ
مِنْ الشُّجُودِ فَلَا نَبْتَ عَلَى الْقُنَنِ

فهنا نجربة مَنَظَرِ رُؤُسِ الجبالِ المرتفعاتِ الصُّنْعِ بعد أن يكونَ
الشاعِرُ قد اجتاز مَرُوجاً وغاباتٍ - شاهد ذلك قوله : فَلَا نَبْتَ
عَلَى لِقْنَنِ •

وقوله :

أَنَا صَخْرَةٌ الْوَادِي إِذْ مَا زُوجِمْتُ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَأَتَنِّي الْجُوزَاءُ

وزعم بعض الشراح ان مراده بذكر الجوزاء علوه المنطق وما أرى إلا انه اراد أن منطقها باهر ذو ألق كما تتألق أنجم الجوزاء الثلاث اللاتي هن لها كالنطق ومكانهن في البيعة الظلماء واضح" ايضاً وضوح •

وقوله :

وَإِنْ يَكُ سَيْفٌ دَوْلَةٍ غَيْرِ قَيْسٍ
فَسَنَّهُ جُسُودٌ قَيْسٍ وَأَثِيَابُ

وَتَحْتَ رَبَابِهِ نَبَتُوا وَأَثَرُوا
وَفِي أَيْتَامِهِ كُتِرُوا وَطَابُوا

والشاهد هنا منظر النبات الجديد • وقد كان أبو الطيب بكويرياً مثل هؤلاء الذين حاربوا سيف الدولة وكان هو شديد العطف عليهم والسيل الى جانبهم ، وفي باديتهم بادية الشام . كان قضى شظراً صالحاً من أيام شبابه •

وقوله :

إِذَا زَلِقَتْ مَشَيْتَهَا بِيْطُونَهَا
كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاغِ

والبيت في صفة الخيل وتأمل مثل انسياب الثعابين بيطونها هنا جلي كما ترى •

وباب تشبيهات أبي الطيب وضروب مجازه مجال " واسع وأمثته مما
 منه شفاف " بتجارب سفره واحساسه بجبال الطبيعة كثير . فنكتفي بهذا
 القدر الذي اوردناه وربما وقع في ما سنستشهد به من بعد ، على غير بابه
 إن شاء الله . ما هو من معدنه وسنخه • هذا والضرب الثاني ميت يقع
 من تجارب الطبيعة في شعر أبي الطيب ما يأتي به أثناء الأغراض التي
 يتناولها كأنه جزء " منها أو مستطرد " به عنها أو متمم معناها ، و من
 هذا الجرى •

مثلا قوله :

فأضحت كأن السُّور من فوق بدئه
 إلى الأرض قد شق الكواكب والشهب
 نصد الرياح الهوج عنها مهابة
 وتفرع منها الضير أن تلقط الحب
 وتردى الجناد الجرود فوق جبالها
 وقد ندف الصنبر في مرقها العطب

تأمل قوله " تردى الجناد الجرود " وما فيها من محاكاة وقع
 حوافرها والصنبر بكسر الصاد ونشديد النون المفتوحة وسكون الباء هو
 البرد لسديد والعطب بضم العين وسكون الطاء هو القطن •
 والغرض هنا وصف قبة مرعش • وموضوع الطبيعة المذكور
 أثناء هذا الغرض وفيه تجربة أبي الطيب مضممة • وصف هذه
 الرياح الهوج والضير التي أفرعها زفيف الرياح • وكأن أبا الطيب قد
 نظر إلى علقمة حيث قال :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا تُطِيرُهُنَّ دَابِيبٌ

• أَي عَجَزْنَ عَنِ الطَّيْرَانِ لَفَزَعِهِنَّ •

ثُمَّ نَبَعَ هُبُوبَ الرِّيحِ نَزُولُ الشَّجَرِ وَالْبَرَادِ وَتَنَارُ فُطُنِ الصَّفِيعِ
وَقَدْ خَرَجَ أَبُو الطَّيِّبِ وَصَحْبُهُ يَرُوضُونَ جِيَادًا جُرْدًا بِـ وَهَبِي صَيْبِ
ارْتِيَاعِ نَفْسٍ وَبَهْجَتِهَا عِنْدَ الثَّلَجِ • وَلَا يَخْنُو قَوْسَهُ • (وَفَدَّ
نَدَفَ الصَّنْبَرِ فِي طَرَفِهَا الْعُضْبَا) مِنْ نَظَرِ إِلَى فَوَلِّ الرُّزْدَنِ :

وَأَقْبَلَ مَوْضُوعَ الصَّفِيعِ كَأَنَّهُ

عَلَى سَرَواتِ النُّشُوقِ فُطُنٌ مَنَدَفٌ

وَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ بَعْدَهُ فِيهِ الْحَرَكَةُ - نَدَفُ الصَّقْبِ كَنَمَطٍ •
وَزَفِيفُ الرِّيحِ وَعَصْفُهَا •

وَكَأَن قَوْلُهُ : (الْجِيَادُ الْجُرْدُ) فِيهِ نَوْعٌ مِنْ إِيحَاءٍ بِخُلُوعِ مَكَانٍ
مِنْ خُضْرَةِ النَّبَاتِ إِلَّا الشَّجَرَ الْعَارِيَّ السَّليْبَ •

وَمَا يَدُلُّهُ عَلَى قُوَّةِ انْطِبَاعِ صُورَةِ الثَّلَجِ وَحَسَرِ الْبَرَدِ
عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلُهُ :

حَتَّى عَبْرَنْ بِأَرْسَنَ سَوَابِحِ

يَنْشُرَنْ فِيهِ عَدَائِهِ نَفَرَسَادِ

يَقْمِصَنَّ فِي مِثْلِ الْمُدَى مِنْ بَارِدِ

يَذَرُ الْفُحُونَ وَهْنٌ كَتَخْصِينِ

يَصِفُ بِهَذَا غُبُورَ خَيْلٍ سَيْفٍ لِدَوْنِهِ - فِي أَوَائِلِ أَرْبَعِ يَغْزُونَ
أَرْضَ الْعَدُوِّ •

دُعِيَتْهُ فِي حَنَّةٍ رِيضَةٍ مَهْرَةٍ (الصَّخْرُور) زَمَنَ الشَّتَاءِ بِمَتْنِيسٍ
لَهُ كَلَاءٌ وَدَدَ عَنَّتِ الْأَرْضُ اشْرُوجُ :

مَا نَسْرُوجِ الْخَضِرِ وَالْحَدَائِقِ
بَشَكُو خَلَاهَا كَثْرَةُ الْعَوَائِقِ

أَقَامَ فِيهِمُ الثَّلْجُ كَالْمُرَافِقِ
يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ
وَهَذَا أَيْتٌ مِنْبِئٌ بِتَجَرِبَةٍ خَاصَّةٍ قَوِيَّةٍ • وَمَا أَشْكُهُ أَنْ أَبَا الْعَلَاءِ
أَخَذَ مِنْهُ حِينَ هَلْ يَصِفُ بَرْدَ بَغْدَادِ :

هَذَا بَرْدٌ لَا نَزَالَ نَوَاجِذِي
فِي مُنْتَضَاهُ سَوَابِجِ كَأَوَائِرِهِ
حَسِبْتُهُ أَخَذَ قَوْلَهُ (سَوَابِجًا) مِنْ صَدْفَةِ أَبِي الضَّيْبِ الْخَيْلِ وَهَنْ
سَبَحَنَ كَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ :

حَتَّى عَبَرَنَ بَارِ مَنَاسَ سَوَابِجِ
وَفَوْهُ (كَأَوَائِرِهِ) - أَخَذَهُ مِنْ هَهُنَا - (يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ
الْبَاصِقِ) •

وَزَادَ قَوْلُهُ مُنْتَضَاهُ (يُضَمَّنُ ذَلِكَ تَشْبِيهًا لِحَدِّ الْبَرْدِ بِحَدِّ
السَّيْفِ • وَدَمَتْ قَوْلُ أَبِي الضَّيْبِ (فِي مِثْلِ السُّدَى) •
وَالْعَوْدُ إِلَى أَيْتَاتِ أَبِي الضَّيْبِ :

أَقَامَ فِيهِمُ الثَّلْجُ كَالْمُرَافِقِ
يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ

ثم مَضَى لَاعَادَ من مُفَارِقِ

بقائِدٍ من ذَوْبِهِ وسَائِقِ

والتشبيه مأخوذٌ من معنى ما هو في مَعْرِضٍ وَحِصَةٍ من الرِّيَاضَةِ
والركض أَعْنَى تشبيهه الذَّوْبَ بالقائِدِ والسائق • ويبدو لي أنه عَنَى
بالقائِد ما يتقاطر من الثَّلَج حين يكون عالِقاً بالصخور أو رؤوس الدُّور
وبالسائق ما يَنْشَقُّ منه من وراءٍ فيَنْحَدِرُ له سائره •

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ باغِي آبِقٍ يَأْكُلُ من نَبْتٍ قَصِيرٍ لاصِقٍ
كقَشْرِكَ الحَبِيرِ عن السَّهْرَقِ

المهراق الاوراق البيض شبه بها بياض الثلج • وهذا التشبيه منتزع من
صناعة أبي الطيب من الكتابة والخط والمراجعة والكشط • وقد نبه على مش
هذا من إحسانه أبو منصور في فصله البارِع الذي عَقَدَه له في يتيسر
الدهر •

وقلَّ مكانٌ مرَّ به أبو الطيب وَلَهُ يُسَجِّلُ انطبَاعَ عن جَوِّهِ
وَصَبِيعةَ أرضِهِ • من ذلك مثلاً قوله بصف لبنان في مَعْرِضٍ مدحه أبا على
هرون بن عبدالعزيز الأوراجي :

بيني وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ شِمُّ الْجِبَالِ وَمِثْلُهُنَّ رَجَاءُ
وَعَقَابُ لُبْنَانَ وَكَيْفَ بَقَطْعُهُ وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيِّفُهُنَّ شِتَاءُ
نَبَسِ الشُّوجُ بِهَا عِيٌّ مَسَالِكِي فَكَانَهَا بِيَاضَهُ سُدُودَاءُ
وتشبيه شِمِّ الجبال بأبي عليٍّ كَأَنَّ فيه إِيحَاءَ بتشبيههن برجل دوى
هبة وعنائم ؛ وتشبيه الجبل بالشيخ معروف في الشعر • ومنه (وهو
كالأصل) قَوْلُ امرئ القيس :

كَأَن ثَبِيرًا فِي عَرَانِينَ وَبَنِيهِ كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَحَادٍ مُزَمَّلِ

ومن ههنا انتزع أبو الطيب وحى صورته ذات الرجا العدَدِ وفد
شبهه رجاءه الضخَمَ البعيد بجبال لبنان دات العلوى يكسوه السُج
الأبيض • ثم تذكر أن طريفه إلى تحقيق هذا الرجاء إنما يكون عيهم •
وهنَّ عقبات :

نَبَسَ النُّوجُ بها على مَسَالِكِي
فكأَتْهَا بِيَاضِهَا سَوْدَاءَ

ومثال قوله : يصف بادية الساء في الصيف :
نَوَهَّسَهَا الْأَعْرَابُ سَوْرَةَ مُتَرَفٍ
تُذَكِّرُهُ الْبِيْدَاءُ ظِلَّ الشَّرَادِقِ

فذكرهم بالماء ساعة غبَّرت
سَمَوَةَ كَلْبٍ فِي أَنْوْفِ الْحَزَائِقِ
والشاهد هنا صورة الغبار وهو يُصِيبُ مع الحرِّ أنوفَ الجوع
المرتحين - وأحسبه لم يخلُ ههنا من النَّظَرِ إلى أبي تساء في قوله :

مَنْ لَمْ يُقَدِّ فَيَطِيرَ فِي خَيْشُومِهِ
رَهَجُ الْخَمَيْسِ فَلَئِنْ يَقُودَ خَمِيْسًا

ثم انصرف أبو الطيب بعد إلى شيء من ذكر صفات الصحراء •

وكانوا يروون الموكَّ بأنَّ بَدَّوْا
وَأَنْ نَبَتَ فِي الْمَاءِ نَبَتُ الْغَلَافِقِ

فهاجوك أهدى في النكلا من نجومه
وأبدى بيوم من أداحي النقات

وَأَصْبَرَ عَنْ أَمْوَالِهِ ضَبَابَهُ

وَأَلْفَ مِنْهَا مُقْتَنَةً نُّودَائِقَ

هـ بعض هذه الصفات التي خلعتها على سيف الدولة من إلفِ شدةِ
الحر وانجرِ ألف السُّقْنَةِ لَوَهَجِهِ إِنَّمَا كَانَتْ صِفَتُهُ هُوَ وَإِنِّي ذَلِكَ أَشَارُ
فِي قَوْلِهِ :

ذُرَانِي وَإِسْلَامَ بِلَا دَلِيلٍ

وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لُثَامِ

فَإِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا

وَأَتَعَبُ بِالْإِنْسَاخَةِ وَاسْتِقَامِ

عَيُونُ رَوَاحِلِي إِذَا حَرَّتْ عَيْنِي

وَكُرْدُ بَغَامِ رَاذِحَةٍ بَغَامِي

فَقَدْ أُرِدُّ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ

سِوَى عَدِّي لَهَا بَرَقَ الْغَامِ

وَلَا أَمْرِي لِأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْفًا

وَلَيْسَ قَرِيٌّ سِوَى مَخِّ النَّعَامِ

وقد كن النعام على ذلك الزمان كثيراً في فتوات بلاد العرب الى
مِصْرَ فَيُؤْنِسُ الْآنَ أَنْ يَكُونُ قَسْدَ انْحَاذَ كَشَهُ إِلَى نَعِاقِ بِلَادِ
الْمِنْطَقَةِ احْدَثَةِ ذَاتِ الْمَرْمِ - وقد جاء ذِكْرُهُ فِي سِمْعَرِ ابْنِ الطَّيِّبِ
كَثِيرًا *

من ذلك قَوْلُهُ وَقَدْ نَوَاسِطَ أَرْضِ الْعَرَبِ فِي فِرَارِهِ مِنْ كَافُورٍ
إِلَى الْكُوفَةِ :

بُسَيْطَهُ مَهَلًا سَقَيْتَ الْقَضَارَا
تَرَكْتَ عُيُونَ عَبِيدِي حَيَارَى

فَظَنُّوا لِنَعْمٍ عَلَيْكَ التَّخِيلُ
وَضَنُّوا الصَّوَارَ عَيْرَ التَّنَارَا

فَأَمْسَتْ مَحَبِّي بِكُوَارِهِمْ
وَقَدْ قَصَدَ الضَّحَّتُ فِيهِمْ وَجَارَا

وقد أعددنا الأسرّة لى هذا الحدث الصغير لذي أضحكته هو واصحابه
فى وَسَطِ أَحَاطَةِ الْمَهَالِكِ بِهِمْ . فى مَقْصُورَتِهِ (الأكلة ماشية التَّخِيلَى)
فَقَالَ :

وَقَدْ لَهَا بَيْنَ أَرْضِ الْعَرَا فَنَلْتِ وَنَحْنُ بِرَبْدٍ هَا
رَوَامِي الْكَفَافِ وَكِبْدِ التَّوَهَادِ وَجَارِ الْبَوِيرَةِ وَادِي الْغُضَى
وَجَابَتْ بِسَيْطَةِ جَوْبِ الرَّدَاءِ بَيْنَ النَّعَامِ وَبَيْنَ الْمَهَا

وذكرنا النعام والمهّا هنا أشعرنا من ذكره فى الآيات الرّائية التى
تقدمت لما فيه من صورةٍ تَسْقُ الصَّحراءِ قِسْمِينَ . فبه حيواتهم متجفلات .
النَّعَامُ مِنْ ههنا . والمهّا مِنْ ههنا .

وسرّدها المواضع "أسوب" قديم "الا أن" أب الطيب طاب له وحرّص
على إيصالنا من بيه مَصْرًا الى أرض العرّافِ مَوْضِعًا مَوْضِعًا .
وأحسب أن مَدَّاحَ الرّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبَنَ جَعَلُوا
من طريقهم ذِكْرَ مَرَاكِزِ الطَّرِيقِ حَتَّى يَجْتَنِعُوا حَرَمَهُ السَّرِيفِ
وَالْحَرَامَ الْمَكِّيَّ . فَتَدْوَاهُ هُوَ أَوْلَا مَعَ عِلْسِهِمْ بِدَوْنِ شَكٍّ

بِسُذْهِرِ الْقُدْمَاءِ . إِذْ فَلَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ فَرَّ السُّعْفَانِ وَعَرَفَ
مِنْهَا أَمْثَالَ :

فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَّةُ الشَّرْبِ فَلشُعْبَتَانِ فَلِإِيَّالَاءِ
وَفِي هَزِيَّةِ الْبُوصِيرِيِّ مَرْدٌ حَسَنٌ لِلْمَوَاضِعِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْحَرَمَيْنِ
فَقَالَ فِي آخِرِهِ :

هَذِهِ عِدَّةُ الْمَنَازِلِ لَا مَا عُدَّ فِيهِ السَّمَاءُ وَالْعَوَاءُ
فَكَأَنِّي بِهَا أَرْحَلُ مِنْ مَكَّةَ شَمْسًا سَمَاؤُهَا الْبِيدَاءُ
وَقَدْ اتَّقَلْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنْ مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
الْقَصِيحِ إِلَى مَدْحِهِ فِي اللِّسَانِ الْعَامِيِّ ، وَافْتَنَّ فِي ذَلِكَ شِعْرَاؤُهُ أَيْسَا
افْتَتَانٍ وَهَذَا بَابُ نَفْصِيلِهِ يَطُولُ وَهُوَ بَعْدُ خَارِجٌ عَسَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ
الْأَقْلِيَاءُ .

هَذَا . وَالْقَصِيدَةُ الْمَقْصُورَةُ الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بِأَيَّاتٍ مِنْهَا هَهُنَا عَدَّةٌ
فِيهَا أَبُو الضَّيْبِ نَحْوًا مِنْ عَشْرِينَ مَوْضِعًا . وَصَوَّرَ فِيهَا حَرَكَةَ انْتِقَالِهِ فِي
الصَّحْرَاءِ مَمَزُوجًا ذَلِكَ بِمَا كَانَ يَسَاوِرُ نَفْسَهُ مِنْ قَلَقٍ وَغَضَبٍ
وَرُوحٍ تَحَدٍّ .

وَافْتَنَّ فَجَعَلَ مَطْلِعَ الصَّبَاحِ مَوْذِنًا بُدْنُوًّا نَهَايَةَ فَرَارِهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ :
وَلَا حَ لَهَا صَوْرٌ وَالصَّبَاحُ وَلَا حَ الشَّغُورُ لَهَا وَالضُّحَى
وَصَوْرٌ وَالشَّغُورُ مَوْضِعَانِ بِالْعِرَاقِ . وَإِذْ بَلَغَهُمَا وَهَبٌ مِنْ مَعَالِمِ
النَّجَاةِ وَاقْتِرَابِ الْمَأْمَنِ . التَّفَتُّ إِلَى مَا كَانَ قَدْ تَجَسَّسَهُ مِنْ يَلِّ الْجَدِّ
وَالْخَوْفِ قَبْلَهُمَا .

فيا لك ليلاً على أعكسٍ أحمَّ البلادِ خفى الصُّوى
ورَدَّنا الرُّهَيْمَةَ في جَوْزِهِ وباقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى
ليست صفة الليل هنا مَذْهَبٌ تَقْلِيدٌ شِعْرِي وَلَكِنَّهَا نَجْرٌ بِهِ
تُحَسِّنُ صِدْقَ إِحْسَاسِهَا ذِي الطَّابِعِ الْفَرْدِيِّ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَلَكِنَّا
لَا نَقْبِلُ عَلَيْهِ بِالتَّأَمُّلِ النَّاقدِ الْعَمِيقِ الْأَعْجَابِ لِمَا تَعَوَّدْنَا مِنْ عَدَمِ
الْإِقْبَالِ عَلَى أَوْصَافِ اللَّيْلِ وَالشُّجُومِ وَالْقَمَرِ مِمَّا يَقَعُ كَثِيرًا بِلا طَابِعِ
مُشَاهِدَةٍ أَصِيَّةِ التَّجَرُّبَةِ عِنْدَ أَصْنَافِ الشُّعْرَاءِ * تَأَمَّلْ قَوْلَهُ :

وَأَسْرَى فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَحَدِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي فَرْسٍ مُنِيرِ
وقوله :

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعْسٍ فِي دُجَاهَا
خَرَّائِدٌ سَافِرَاتٌ فِي حَدَادِ
وقوله :

مَا بَالُ هَذِي الشُّجُومِ حَائِرَةٌ
كَأَنَّهَا الْعُصَى مَالَهَا قَائِدٌ
وقوله :

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّمَتَّ رَأَيْتَهُ
يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نَوْرًا ثَاقِبًا
كَالشَّمْسِ فِي كَبَدِ السَّاءِ وَضَوْوُهَا
يَغْشَى الْبِلَادَ مُسَارِقًا وَمُغَارِبًا
وقوله :

كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
حَفَّ بِهِ مِنْ جَانِبِهَا ظِلٌّ

هذا ، في شعر أبي الطيب انطباعات " قوية دقيقة " مختصرة " عن البلاد
التي تاهدها كالذي مرَّ من صفة غبار ساوة كُتِبَ وجبل لبنان
وثلج الشد وصلح رؤس جباله وكفوله يذكّر ظهور الربيع عند عيد
النيروز في بلاد فارس .

ما لبس فيه الأكاليين حتى بسنها نالعه ونجاده
وكفه في النيل :

وسكت به البيداء حتى تغسرت

من النيل واستدرت بظرس السقظ

وفي فوه (تغسرت) اشعار بكثرة ماء النيل وجسمه وفي قوله
(استدرت بظ السقظ) اشعار بخصب مصر وخفض العيس الذي لقيه فيها وقد
صرح بذكر هذا الخفض ، رجعه سبب سقيه في القصيدة الميسية الرائعة
التي وصف فيها الحمى فقال :

وزائرني كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام
بذلت به أطراف الحسايا فعافتها وبنت في عظامي
يضيق لحده عن نفسي وعيا فوسعه بأنواع السقذ
إذا ما دارفتني غسنتني كأن عاكفان على حرام
كأن الصبح يتردها فتجري مدايح بأربعة سجام
أراقب وفك من غير شوق مراقبة انسوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظم

وهذا تأمل دقيق . وليس وصف الحمى بأبعد . في باب الطبيعة عن
وصف الأسد والنعام ولا سيئا ونحن الآن نعلم أن سبب حيوان

صَغِيرٌ " لَا نَرَاهُ الْعَيْنُ ، وَإِنَّمَا تَحْسِسُ نَفُوسُ أَثَرِهِ . فَهَذَا هُوَ الَّذِي
ذَكَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَمَنْ جَيِّدٌ مَا يَجِيءُ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ مُخْتَصَرًا
لِمَلاحِظَاتِهِ وَانطباعاتِ تجاربِ الطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِهِ مَا يَقَعُ فِي بَابِ النسيبِ
وَبَعْضِ أَغْرَاضِهِ الْأَخْرِيَّاتِ مِنْ صِفَاتِ لَحْيَا وَذَكَرِ نِسَائِهِ .
مثل قوله :

رعى الله عيسا فرقتنا وفوقها
مها كلشها يولى بجففيه خدشه

بوادٍ به ما بالقلوب كائنه
وقد راحلوا جيد" تذخر عقده

إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ بَنِيهِ
نِشَاوَحَ مِسْمَا الْغَانِيَاتِ وَرَأْسُهُ
وَالنَّهْدُ هُنَا هَذَا الْأَرْجُ الْعُطْرُ الْمُتَشَوِّحُ مِنَ الرَّئِيسِ وَتُخَالِطُ
نَسِيئَهُ الرَّقِيقَ عُظُورُ الْغَانِيَاتِ وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ هُنَا لَمْ يَحِمْ مِنْ أَخْذِ
مِنْ عُلُقَةٍ حَيْثُ قَالَ . مِنْ مِيسِيَّتِهِ الْفَرِيدَةِ :

يَحْمِلُنَ أَكْثَرُجَّةً نَضَخَ الْعَبِيرُ بِهَا
كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِئِي الْأَنْفِ مَسْشُومٌ

وفال أبو الطيب :-

قَدْ يَنَّاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرَبًا
فَأَنَّكَ كُنْتَ لَشَرْقِ الشَّمْسِ وَالْغَرْبِ

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَأْسَهُ مِنْ لَمْ يَدْعَ نَا
فَوَادًا لِعِرْفَانِ الرَّسُومِ وَلَا تَبَّ

جعل أبو الطيب ههنا رُبْعَهُ رَمَزًا للكون كُتْلَهُ وللطبيعة كُلُّهُ ومحبوبته
حيث كنت مقيمة به تطلع وتغيب :

نَزَلْنَا عَنْ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كِرَامَةً
لِسَنِّ بَانَ عَنْهُ إِنْ نَشِئْ بِهِ رَكْبَ
والمعروف عند الربوع الوقوف والاستيقاف كقول امرئ القيس :
فَمَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
وقوله :

وقوفاً بها صَحْبِي عَلَى مَضِيهِمْ
وقول أبي الطيب (نَزَلْنَا عَنْ الْأَكْوَارِ نَمْشِي) فيه إفصاحٌ بتجربةٍ
فردية سوى اِمْتِوَاضِعٍ عليه في نعت الأطلال •
وَنَحْنُ لَا نَسْلُكُ بَعْدَ الْآنَ نَتَرَجَّلُ مَعَ التَّسَعْرِ وَسَنِي وَحَوْلَنَا
كَوْنُ الطَّبِيعَةِ وَالذِّكْرَى الْعَرِضَةُ وَلَا يَخْلُو مِثْلُ هَذَا السَّنَى مَعَ مَا
يُصَاحِبُهُ مِنْ تَأْمُلٍ حَزِينٍ وَادِّكَارٍ مِنْ تَوَعُّرٍ نَشْوَةٍ وَارِنِيَّاحٍ فَوَادٍ
وَوَاقِعِيَّةٍ حَيَّةٍ •

واحسبُ أَنْ مَنْشَأَ هَذِهِ الْوَاقِعِيَّةِ مِنْ كَوْنِ أَبِي الطَّيِّبِ قَدْ كَانَ مَعَهُ
صَحْبٌ يَشَارِكُونَهُ النَّزْوَنَ وَالْمَشْيَ . لَا وَاقِفِينَ عَلَيْهِ مَطِيئِهِمْ كَمَا عِنْدَ
امرئ القيس وطرفة . وَلَا مُسْتَوْقِفَهُمْ هُؤُلَا أَوْ دَاعِبَهُمْ لِي أَنْ يَعُوجُوا
ويعرجوا كما هو المذهب في النَّسِيبِ •

وَمَصْدَرُ النِّشْوَةِ وَالْارِنِيَّاحِ هَذَا الْغَيْثُ الَّذِي حَسَّنَ مَنْظَرَ الْأَرْضِ
وَطَابَ نَسِيمُهَا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى مَا أَوْفَعَهُ بِمَكَانِ الرَّبْعِ مِنْ تَعْيِيَةِ مَعَالِمِ
ومحو آثار :

تَذُمُّ السَّحَابَ الْغُرَّ فِي فَعْلِهَا بِهِ
وَتُعْرِضُ عَنْهُمْ كَمَا طَعَتْ عِبَادُ

فَوَلَهُ الْغُرُّ فِيهِ فَرَحَةٌ بِالسَّحَابِ وَحُبٌّ لَهُ •
وَلَا غُرَّوْا فَبَالْبَادِيَةِ نِسَاءً وَكُحْبُ أَهْلِهَا الْغُيُوثُ وَبُرُوفُهَا أَحِبَّةٌ •
وَهُوَ الْقَائِلُ :

فَقَدْ أَرَدْتُ أَمِيهَ بَغِيرَ هَادٍ سَوَى عَدَوِّي لَهَا بَرَقَ الْغَمَادُ
وَهُوَ هُنَا يُخَاطِبُ السَّحَابَ مُخَاطَبَةَ الصَّدِيقِ الَّذِي نَسَهُ بَوْدَهُ
الْعَهْدُ الطَّوِيلُ يَذُمُّهُ لِلَّذِي فَعَلَ بِالرَّبْعِ وَيَعَاتِبُهُ وَيَعْرِضُ عَنْهُ وَهُوَ
- أَيِ السَّحَابِ - عَلَيْهِ مُتَقَبِّلٌ بِلَمَعَةِ الْحَرِّ الْأَغْرَّ الْجَبِيلِ •
وَهِيَ تَتَكَرَّرُ هُوَ لِلْسَّحَابِ بَعْدَ هَذَا الْوَدِّ كَمَا هُوَ شَأْنٌ رَفِيعٌ
هَذِهِ الدُّنْيَا فِي التَّنَكُّرِ ؟

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا ضَوِيلاً تَقَلَّبَتْ
عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كَذِباً
نَمْ يَأْخُذُ أَبُو الطَّيِّبِ فِي الْمَرْجِ بَيْنَ حَاضِرِ ارْتِيَا حِهِ لِلرَّبْعِ وَالْأَصِيلِ
وَالضُّحَى وَالنَّسِيمِ وَغَايِرِ مَا كُنْ ، مِنْ عَهْدٍ مُودَّةٍ الْحَبِيبِ وَمَا يُثِيرُهُ
ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ضَرْبٍ • وَمَا نَعُوذُ بِهِ خِفَّةُ ذَلِكَ الطَّرَبِ (وَقَدْ
أَخَذَتْ الْآنَ تَتَقَدَّمُ بِهِ السَّنُّ) إِلَى سَالِفِ عَصْرِ صَبَاحِهِ أَيَّامَ كَانَ
غُلَامًا يَتَوَثَّبُ وَيَتَّبُ وَشَبَابًا يُقَدِّمُ إِقْدَامَ الْآتِي • أَيِ السَّيِّئِ أَوْ
كَمَا قَالَ :

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَأَنَّ لِي
سَوَى مَنْهَجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَرْتَرُ

وهذا كما ترى من أجود ما يقال من صفة حساسه أنساب ودكر
السيل فيه ما قدّمنا ذكره من صفة الطبيعة ضمن النسب .

وكيف انداذى بالأصائل والضحى
إذا لم يعد ذلك النسب الذي هب

ذكرت به وحلاً كان لم أفز به
وعيشاً كأنى كنت أفضعه ونب

البيت الاول فيه إعلامنا انه التذنبوب النسب وخدمه وضحه
والبيت الثاني فيه الصورة التي زعمنا انه تنزعها من تذكره به .

وفتاة العينين قتالة الهوى
إذا نكحت شيخاً روائحها شبا

له بشر الدبر الذي قلدت به
ولم أر بدراً قبلها من الشهب

وكان عهد أبى الطيب بهذه الفتاة غير بعيد . وكان قوله اد محب شيخ
روائحها شبا - وهذا شبيه بقوله :

تفأوح منك الغايات ورنده

وفوله :-

ولم أر بدراً قبلها قلد الشها

فيه معنى ما ذكرناه من قوة احساسه بضوء البدر والتلجج
وانعكاس روح هذا المعنى في تعبيره - وصورة الحسناء ههنا لا يخفى
أنها ذات اللق وهماج انتزعه الشاعر من ضوء الشمس والبدر والدرارى
والشهب .

ونأمل قوله :

وَمَنْ يَصْحَبِ اسْمَ ابْنِ عَبْدِ مُحَمَّدٍ
يَسِرُّ بَيْنَ أَنْيَابِ الْأَسْوَدِ وَالْأَسَدِ

بَسْرُهُ مِنْ نَسَمٍ الْوَحْيِ يَعَاجِزُ
وَبَعْبُرٍ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ عَلَى دُرْدُرٍ

كَفَنَّا رُبَّيْعُ الْعَيْسِ مِنْ بَرَكَاتِهِ
فَجَاءَتْهُ لَمْ تَسْمَعْ حَدَاءً سِوَى الرُّعْدِ

اد. م. سَنَحِينَ الْمَاءَ يَعْزِضُ نَفْسَهُ
كَرَعَنَّ يَسْبَتُ فِي انَاءٍ مِنْ اُورْدِ

وهو ينعزذ بأن سفره كان نهرا في ظل الغمام وصوت الرعد البعيد
غير المرعب لبعده . كأننا هو حاد يسوق ابله . وقد نسيت لأعتدال
الهواء ولطفه وشمول النعسة والرخاء . حتى انهن قد داخلتهن الحياء
ما رأين كثره الماء . ووجدن انفسهن مثرفات قد رقت شفاهتهن حتى
صرن كالسبت وهو جدد الماعز الرقيق المدبوغ وجعلن يكرعن
بها من غدرن حنف بهن الزهر . كأنهن يكرعن من نية فضة
تزين حواسيها اورود .

كَأَنَّ ارْدَاتٍ شُكِرْنَا اِمْرَاضُ عِنْدَهُ
فَلَمْ يُخَلِّنَا جَوْهُ هَبَطْنَاهُ مِنْ رِقْدِ

وعنى بالرقد هذا الجبال والارج الحسن . وشكر الارض
نفتحها بانخضرة والنشوار - كما قال ابن الرومي :

شَكَرْتُ نِعْمَةَ الْوَلِيِّ عَلَى الْوَسْطِيِّ

ثُمَّ الْعَهَادِ بَعْدَ الْعَهَادِ

وَفَدَ نَعِمَ أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ كَانَ مِنْ رِوَاةٍ شِعْرُهُ وَمَا خَلَا هَهُنَا مِنْ إِسَارَةٍ
خَفِيَّةٍ إِلَى مَا قَدْ قَالَ •

لَنَا مَذْهَبُ الْعُبَادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ

وَأَيْنَانِهِ نَبْغِي الرِّغَائِبِ بِالزُّهْدِ

رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ

بِأَرْجَانِ حَتَّى مَا يَسْنَا مِنَ الْخُنْدِ

تَعَرَّضُ لِلزَّوَارِ أَعْنَاقُ خَيْلِهِ

تَعَرَّضُ وَحَشٍ خَائِضٍ مِنَ الطَّرْدِ

وَتَلْقَى نَوَاصِيهَا التَّمَانِيَا مَشِيحَةً

وَرُودَ قَطَا صُمٍّ تَشَايَحُنَ فِي وَرْدِ

قَالُوا جَعَلَ الْقَطَا صُمًّا لَاهْتِسَامَهَا بِالطَّيْرَانِ وَانْشَاغَالِهَا بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ
سِوَاهُ وَمِنْ تَأَمَّلِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الدَّالِيَّةَ مَا صَرَخَ فِيهِ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْهَا
بِذِكْرِ الطَّبِيعَةِ مِنْ رَيْعٍ وَغَيْثٍ وَزَهْرٍ وَمَا لَمْ يُصَرَخْ وَلَكِنْ جَاءَ
بِهِ فِي مِعْرَاضِ الْمَدْحِ يَجِدُ أَنَّهُ ضَمَّنَهَا تَجَرُّبَةً سَقَرَهُ إِلَى ابْنِ الْعَمِيدِ
كُلُّهَا - صَوْتُ الْأَسْوَدِ . وَدَبِيبُ الْحَيَّاتِ . وَصُورُ الْوَحْشِ
الْنافِرَاتِ وَضُرُوبُ النُّقَطِ وَالطَّيْرِ الْوَارِدَاتِ الْمِيَاهِ ... ثُمَّ ثَفُورُ نَفْسِهِ
هُوَ شَيْئًا مِنْ ابْنِ الْعَمِيدِ • وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ عَابَ عَلَيْهِ قَصِيدَتَهُ
الرَّائِيَةَ •

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتُ أَمْ لَمْ تَصْبِرْ

فإن صحَّ هذا فهوَ لا ريب من أسباب النفور • وقد كان ابنُ العميد
من أكابر الكتب في زمانه - ولا يخلو مذهبه من كثرةٍ وظلٍّ ثقيلٍ
أشبه شيء مع بعد القياس بسوجه الشعر الحديث التي نجتأحنا الآن •
هذا واحسب أن أبا العلاء قد أخذ من أبي الطيب الدالية هذه
في وصفه سقّره الى العراق حيث قال :-

وبتة بمُستَنِّ اليراييم راقِداً
يُطَوِّقَنَّ حَوْلِي من فرادى ومن شقَع
فهذا كأنه مؤلّد من قول أبي الطيب يسير بين أنيابِ الأسودِ
والأسد • وحيث ذكر الأبل فقال :-

لقد زارني طَيْفٌ اخيلَ فهاجني
فهل زار هذِي الإبلَ طَيْفٌ خيل
لعل كراها قد أراها جذابها
ذَوَائِبَ طَلَحَ بالعقيق وضال
فهذا كأنه تفسّريّ من قول أبي الطيب « استَحْيَنَ الماءَ يعرض نفسه »
وقوله « كَرَعَنَ سَبَّتَ في إناءٍ من الورد » • وما يُصَحِّح ما نزعاه
هنا ويؤكّده قولُ أبي العلاء :

وأعجبها جذبُ العضاهِ أنوفها
بِسْتَرٍ إِبَارِ حُدِّدَتْ وَنِصَالِ
فجعل الأنف مكانَ المشافر وجعل العضاهَ وشوكها مكانَ الورد
وفي الورد شوكٌ إلا أنه رقيقٌ لطيفٌ غيرُ بدويٍّ خشنٍ كشوكِ
السيال والطلح وهلم جرا •

ومما يدخل في باب الطبيعة . وان بدا كأنه غير داخل فيها . ما كان
أبو الطيب بجيء به في شعره من حوَر الحركة والمنظر التي يبدو
معها - مثل قوله :-

وتُضْحِي الحُصُونُ المُشْمَخِرَاتُ في الذنرا
وخيئل في أعناقهن فلائيد
فهذا منظر ذو حركة متبس فيه الإنسان وعكسه بطبيعة كس
التباس . ونحو منه قوله الذي مرء آتفا :

حتى عبرن بأرسل سوابج
ينسرن فيه عائم الثمران

فكأنهن سقن لهن عود كما نرى .

وقوله :

كس رحيبت بنا الرؤوس قلنس
حب قصود وأنت السبي

فتونه رحيبت منبى بحركة ما فيه من قدوم ورحيب . ثم فيه
معنى انساع الرؤوس وبهجة وانصباع ذلك في قواد اساعر مع شراعة
تجاوز له :

وقوله :-

فلما تجلّى من دلول وصنجة
علت كسل صود راية ورعيل

ولت ان تتخيل هوال هذا السنظر وكروعه .

على طَرُقٍ فيها على الطُّرُقِ رَفْعَةً
وفي ذِكْرِهِ عِنْدَ لَا نَيْسِ خُسُولِ
وَرُءُ عَنْ بِنَا فَلَئِبَ الثَّرَاتِ كَأَنَّمَا
تَخِيرُهُ عِيَهُ بِالرَّجَالِ سَيُولِ
بُطْرِدُ فِيهِ مَرَجُهُ كُلُّ سَابِحِ
سَوَاءٌ عِيَهُ غَرَّةٌ وَمَسِيرِ
نَرَاهُ كَأَنَّهُ أَمَاءٌ مَرَّةً بِجُسْئِهِ
وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَحَدَهُ تَمِيلِ
منظر الجبال على رؤوسهن الرايات والخيل مكدّة الأفقر . ثم صورته
الخيول والنمرسان المندفعة إلى نهر الثرات أمثال السيول .
والتشبيه نفسه يتضمن تجرّبة من الشاعِر لمنظر السيول وهي تخير
في نهر كبير ثم بعد دِفاعِ أوائل منفاه به ستخرج أمواهه ونياره
بأمواهه ونياره ومثلهن هؤلاء النمرسان وخيلهم منفعين حتى إذا
صاروا إلى الماء تفرّقوا فيه بدافعون مواجّه ودافعهم . وقد غلب
انساع النهر على منظر قوّة انحداره العظيمة من قبل . ثم صاروا
من النهر جزءا خيولهم فيه سباحات . كأن أجسامهم قد اقتطعت الماء فذهب
بها ولم يبقَ من كل فرس إلا رأسه وعنقه ضافاً بها على
النوج كأنه من افراس البحر التي كنت حتى زمان قريب ترى
صورهن منفردت هكذا على عرّص الين . هذه الصورة نادرة مذهلة
ذات انطباع نفسي دقيق .

وقد قال ابن الأثير في باب موازنته بين أبي الطيب والطائيين :-

ولا شئ أنه كان يَشْهَدُ الحروب مع سيف الدولة بن حِسان
 فيَصِفُ لسانه ما أدى إليه عيانه ، وليته قال : وجَدْنَاهُ فَنَ رُؤْيَاهُ
 الْقَنْبِرَ أَعْمَ وادق من رُؤْيَاهُ الْبَصْرَ ونذلك قال تعالى : جل من فائ :
 « فَإِنَّهَا لَا نَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » وقال
 سبحانه وتعالى : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
 وَهُوَ شَهِيدٌ » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله مع رؤْيَاهُ بِصِيرَهُ بصيرة - وله تكن
 الجيوش في زمانه تحارب من وراء جدار الا عند الحصار • وكان ولع ابي
 الطيب ينعت حركتها عظيما وما أَحْسِبُ مصدرَ ذلك الا أَنَّهُ كَانَ
 يحب الهواء الطَّلَقَ مع حركة المجال الرحيب ... فالذي رأين من سُورَةِ
 الْخِيلِ قَلَائِدَ حَوَّلَ ذُرًّا الْحَصُوثِ وَمِنْ صُورِهِنَّ وَهِنَّ يَثْنَيْنَ كُلَّ
 طَوْدٍ كَأَنَّهُنَّ رِيَّاحٌ حَقَقْنَ بَغْصَنٍ رَطْبٍ وَإِذْ هُنَّ
 يَعْبُرْنَ أَرْسَنَاسٍ وَيَنْشُرْنَ فِيهِ الْعِمَائِمَ وَإِذْ هُنَّ يَعْلُونُ الْهَضَابَ
 وَعَلَيْنَ الرِّايَاتِ وَاذْ هُنَّ فِي الْفِرَاتِ كُلِّ مِنْهِنَّ مَقْبَلٌ

« رَأْسٌ وَحَدَهُ وَتَلِيلٌ » •

كل هذه صُورٌ من الطبيعة الطلقة امتزجت به حركة الشاعر
 والمشاهد الرائعة التي ملكت عليه فؤاده وبصره

نأمل فوله يَصِفُ جيوش سيف الدولة وخيله :

تُبَارِي نَجُومَ الْقَذْفِ فِي كُلِّ لَبْلَلَةٍ

نجوم له مِنْهِنَّ ورد وأدْهَمَ

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطُلِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ فِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرٌ بقاء معركة * ولعمري ان امثالها لنراها
مُصَوَّرَةً في رسم لعدنين الاوربيين فَنَعَجَبُ بها وما هي نَوْ قد تَفَرَّسْنَا
الا لأن الاصل الذي أخذ منه اسلامي ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به
مُسَوَّنٌ عيهم اعيائهم جعلهم رمزا لعسكر نابليون وما ارى أنه صنع ذلك
الا بضعت ردت إلينا مثلا الفنان الاسباني غوية صورة فرسانها مغاربة
من فَوْ ابى الطيب ونحو قول علقمة في الزمان القديم :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ

بَشِكَتَهُ لَمْ يُسْتَسَبْ وَسَلِيبٌ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عِيَهُمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُ هَنٍّ دِيبٌ

فَمَ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةٌ بِجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبٌ

وَالَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّهُ

بِأَبْنَلٍ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِبٌ

هذا ونعود الى ابيات ابى الطيب :-

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطُلِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يُقَوِّه

فَهَنٌ مَعَ اسِيدَانٍ فِي الْبَرِّ غُسْلٌ

وَهَنٌ مَعَ النَّيَّانِ فِي الْمَاءِ عَوْمٌ

يَطَّانَ مِنَ الْأَبْطُلِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة النطبعة مَنْظَرٌ بَقَايَا مَعْرَكَةٍ * وَلَعَرِي أَنْ أَمْثَلَهَا لِنَرَاهَا
مُصَوِّرَةً فِي رِسْمِ الْفَنَانِينَ الْأَوْرَبِيِّينَ فَتَعَجَّبُ بِهَا وَمَا هِيَ لَوْ قَدْ تَفَرَّسْنَا
الْأَوَّلَ الْأَصْلَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ إِسْلَامِيٌّ يَنْظُرُ إِلَى نَحْوِ هَذَا الَّذِي اسْتَشْهَدْنَا بِهِ
مَسْلُوسُونَ عَلَيْهِمْ أَعْيَاءُ جَعَلَهُمْ رَمَزًا لِعَسْكَرِ نَابَلْيُونِ وَمَا أَرَى أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ
إِلَّا بِضَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا مِثْلًا لِلْفَنَانِ الْإِسْبَانِيِّ غَوِيَّةَ صُورَةٍ فَرَسَانَهَا مَغَارِبَةٌ
مَنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ وَنَحْوِ قَوْلِ عَلْقَمَةَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ :-

رَغَا فَوَقَّهْمُ سَقَبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضُ

بَنِيكَتَهُ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيلِ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُهَا نَدْبُ

فَمِنْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبِ

وَالَا كَمِيٍّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّه

بِأَبْنَاءِ مِنْ حَدِّ الظُّبُاطِ خَضِبِ

هَذَا وَنَعُودُ إِلَى آيَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ :-

يَطَّانَ مِنَ الْأَبْطُلِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

فَهْنٌ مَعَ اسِيدَانِ فِي الْبَرِّ عُسْلٌ

وَهْنٌ مَعَ التَّيْنَانِ فِي الْمَاءِ عُوْمٌ

وهُنَّ مع الغزلان في الوادِ كُثُنَّ

وهن مع العفبان في النيقِ حَوَّه

وقد يخيل للسَّراءِ أول وهلة أن هذا مَجْجِيءٌ به على مذهب أربابنا، والله
در ابن الأثير إذ فَطَنَ إلى أَنه ما كان إلا وَصْفاً عن مساهمة من
قلب بصير .

وباب الحروب في شِعْر أبي الطيب كبير . ربه خرج به ما نحن
بصدده . فلتسع إلى ما وقع فيه ملابس للطبيعة إماما مكتفين بما قصدهم الذي
مرَّ ومشيرين إلى أمثاله ما وصف أبو الطيب ركوب القنص - كلاليت
التي استشهدنا بها من عبور أرسنس والفرات وكقوله .

تلقى بهم زبدَ التيار مَقْرَبَة

على جحافلها من نَحْجِه رنب

وليست المقربة ههنا بخيل وانما هي سَفْنٌ واستعار لها جحافل في
شِفْها كما لخيل شِفْهاة والرَّثْمُ بياض في الشففة العليا شبه به بياض
الموج .

والموج مما يشبه بالخيل كثيرا .

دُهم فوارسُها ركابُ أبطُنْها

مكدودة ويقود لأهل الألف

وكما وصف أبو الطيب السفن صنع كذلك أبو العلاء - وذهب قوله :

على نَجاةٍ من الفِرْصاد أيدها

رَبُّ القَدْوَد بَوْصَلٍ وضالاع

سارت فزارت بنا الأَنبار سائلة
نَزَجَى وتَدَفَّعَ في مَوْجٍ ودفاع

وصورة المجذاف و لجهد اوضح في قول ابى الطيب :

دُهِبَ فورسها رَكَّاب ابْنُهَا
مَكْدُودَه" ويقوم لابها الألم
وحسب الاعشى بحركة القرب وموسيقا لَطَمِ التير اطرافه أدق
في قول أبي علاء :

سارت فزرت بنا الأَنبار سائلة
نَزَجَى وتَدَفَّعَ في مَوْجٍ ودفاع
ونسبق بَعْدُ فضيلة على اللاحق . والله تعالى اعلم .

وله أبي نضيب في الصيد والكلاب والفرْد قِطْع" وأراجيز لا تخلو من
احسن الطبيعة واحسان وصفها . من ذلك ما تمثل به آنفا من قوله :
ما لسروج يَحْظُرُ والحدائق يَسْكُو خلاها كثرة العوائق
ومنها :

ولا لغير الغاديات الهطائل	ومسزلة لبس لبس بسزلة
محلل ملوَحس لم يَحلل	ندى يخزى ذفر القرفل
مُحَيَّن النفس بعيد المَوائل	عن لافيه مراعى مغزلة
وعادة" العرئى عن التفصيل	اغذ حسن "جيد عن لبس الحلى

ثم اخذ بعد في نعت كلبه :

له إذ أدبر لحظ السَّقبل
كأَئَمَا يَنْظُر من سجنجن

يُقْتَعَى جُلُوسَ الْبَدْوَى الْمَصْطَى يَكَاد فِي الْوُثْبِ مِنَ التَّقَتِّلِ
يَجْمَعُ بَيْنَ مَتْنِهِ وَالْكُلْكِ
ذِرَى ذَنْبٍ اجْرَدَ غُرِّ اعْزَلِ
ثم اخذ بعد يصف قتاله مع الغزال حتى اصطاده • وقد عيب عليه
فوله :-

كَانَّهُ مِنْ عَيْسِهِ بِالْمَقْتَلِ عَلَّمَ بِقِرَاطِ فَصَادِ الْأَكْحَلِ
فَقَالُوا إِنْ الْأَكْحَلُ لَيْسَ بِمَقْتَلٍ - وَعِنْدِي أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ مَا أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَكْلِبَهُ
اصْطَادَ عَلَيْهِ الْغَزَالَ وَلَمْ يَقْتُلْهُ حَتَّى ذَكَاهُ هُوَ فَهَذَا عِلْمُهُ بِالْمَقْتَلِ أَنَّهُ تَجَنَّبَهُ وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ •

وقال في كلب آخر وذكر المنظر وكان جبيا :

وَشَامِخٍ مِنْ الْجِبَالِ أَقْوَدِ
فَرْدٍ كَيَافُوحِ الْبَعِيرِ الْأَصِيدِ

تأمل هذه الصورة خنزوانة هذا الجبل الشبيه بأعلى رأس البعير
وهو يرغو ويتشامخ •

يُسَارُّ مِنْ مَضِيقِهِ وَالْجُلْمِ
فِي مِثْلِ مَتْنِ الْمَسَدِ الْمُعْقَدِ

وهنا تجربة ومشاهدة • وما أحسب أحدا جرب ممرات الجبال إلا يرى
جودة ما ذكر أبو الطيب هنا •

ثم اخذ في وصف الصيد وكيف ثار الخشف من مرعاه الاخضر النضر
الندى فأصابه الحتف ، ولكل أجل كتاب •

فشار من اخضر مَعْطُورٍ ندى
كأَنَّهُ بدء عِذارٍ الأَمْرَدِ
فلم يَكْـدُ الا لَحْتَفٍ يَهْدَى

ومن قطعة المَعْجَبَات ، وهي ما يلحق بباب الصيد قوله يصف
عين باز .

إذا نَظَرَ البازُ في عِظْفِهِ كَسَتَهُ شُعاعاً الى المنكب
وهذه صورة ناطقة .

وباب الشَّرَاب يلحق بباب الصَّيْد . ولم يَكُنْ أبو الضَّيْب بصاحب
شراب وَلَكِنْ له في ذلك البَيْتُ والبيتان . وقد يُحَسِّن كلُّ الاحسان
كعادته فيقول . مثلاً :

وَوَقَفْتُ وَفَى بالدَّهْرِ لى عند واحدٍ
وفى لى بأَهْلِيهِ وزادَ كَثِيراً
شَرِبْتُ على استِحسانِ ضَوْءٍ جِينِهِ
وزَهْرٍ ترى للماءِ فيه خَريراً
وقوله :-

أَحِبُّ حَمَصاً الى خُنَاصَةٍ	وكلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ مَحِيهاً
حَيْثُ التقى خَدَّها وتَفاحَ لُبْنانُ	وَتَغَرَّى على حِياها
وَصِفْتُ فيها مَصِيفَ بادِيَةٍ	شَتَوْتُ بالصَّحَّاحِ مَشْتاهَا
إِنْ أَعْنَبْتُ رَوْضَةً رَعِيناهَا	أو ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوْنَاهَا
أو عَرَضْتُ عَائَةً مَقْرَعَةً	صِدْنَا بأَخْرَى الجِيادِ أَوْلَاهَا
وَالْخَيْلُ مَقْرُودَةٌ وطارده	نَجَرْدٌ طُولَى التَّقْنَا وقَصْرَاهَا

وما أَظُنُّ أن أحدا اثبت صورة تَفَاحِ لَبْنَانٍ كَمَا فَعَلَ أَبُو الضَّيْبِ ههـ
وفي هذه القصيدة لَفَتَاتٌ أُخَرٌ بَارِعَاتٌ جَدًّا - متن قوله :

نَعُومُ عَوْمَ الْقَذَاةِ فِي زَبَدٍ
مَنْ جُنُودٍ كَفَّ الْأَمِيرُ بَعْشَاهُ

والصورة مُنْتَزَعَةٌ مِنْ إِزْبَادِ السَّيُولِ وَمَا يَطْفُفُو عَلَيْهِ مِنْ غَدَاءٍ •
وقوله :-

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدَّوْلَةِ فَتًى خَسِرُوا سِنِينَهَا
أَسَامِيًّا لَهُ تَزْدَهُ مَعْرِفَتُهُ وَإِنَّا لَنَدَعُوهُ دَكْرُنْهَا
تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الْكَلَامِ لَنَا كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عِظْمَاهُ
وهذا موضع الاستشهاد وفي ضِيَّهِ مَعْنَى مَشَاهِدَةٍ سَحَابَةٍ كَبِيرَةٍ تَبْرُقُ
وترى صغار السحب نحوها مَرْفِلاتٌ • وعين هذا المعنى أَتَى بِهِ فِي قَوْلِهِ
الَّذِي مَرَّ آفَا :-

تَلَكَ وَبَعْضُ الْغَيْثِ يَتَّبَعُ بَعْضُهُ
مَنْ الشَّأْمِ يَتَلَوُ الْحَاذِقُ امْتَعَلَهُ
ومما جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْقَنْصِ وَذِكْرِ اللَّيْلِ وَالصَّيْدِ وَالشَّرَابِ قَوْلُهُ :-

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ
مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى سَوَابِقِ

وَصُحْبَةِ قَوْمٍ يَقْتُلُونَ قَنِيصَهُمْ
بِفَضْلَةٍ مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْمَارِقِ
تأمل هنا تسجيله لِيَنْ ثَرَى الثَّوِيَّةِ وَطَيْبَ مَسْهٍ - وَوَاظِنِ بَيْنَ هَذَا
قَوْلِهِ الَّذِي مَرَّ آفَا :

لَمْ تَفْتَقِدْ مِنْكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى نَشَقٍ

وفوه :-

كَأَنَّ الْجَوَّ وَعَتْ أَوْ خَبَارَ

لوعث زرم الذي تغيب فيه الأرجل . هكذا شرحه العكبري ، والخبار
الارض مبنية - نينا تسوخ فيه الاقدام كما يبدو من السياق . وهذا خلاف
الثرى الذي كانه عنبر في المرافق بلا شك . وقبل الشطر الرائي الذي
استشهد به آخر اقوله ، وفيه روح م ذكرناه من خنط منظر الطبيعة
بحركه نقدر :

فَأَقْبَبَ مَرْجَ مَسْوُومَ ضَوَامِرَ لَا هِزَالَ وَلَا شِيَارَ
وفوه لا شيار أي لاسان
تثير على سلمية مسبطرا

أي عاوج مسبطراً أي متدا قال الآخر يصف سير ناقته :
ومن سبره العنق المسبطر والعجفية بعد الكلال
هذا

نشير على ساسة مسبطراً تناكر تحته لولا الشعاع
عجا نعب العقبان فيه كأن الجوى وعت أو خبار
وما يلفت النظر اليه هنا استكمال الصورة المروج
واعجج رعبان . والخيّل بضيعة الحال ، في مقدمة المنظر .
ونعود في لايت القافية :-

ولبلا نوسدا الثوية تحته
كأن تراها عنبر في المرافق

بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحَسَنَ بَغِيرَهَا

حَصَى تَرْبَهَا ثَقَّبَتْهُ لِيَسْخَاقَ

وكما اثني على الثرى . اثني على الحصى - وما احسب الا ان
الأندلسية رحمها الله ، نظرت الى هذا البيت حيث قالت في وصف الوادي :-
يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْسُسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النَظِيهِ
والبيت جيّد والتوليد في الشعر مذهب متلئب ، يأخذ
الآخر عن الأول وكل أولئ صوب الحجاج كما قال أبو تمام .

سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلَّتِي مَلِيحَةً

عَلَى كَذِبٍ مِنْ وَعْدِهَا ضَوْءٌ صَادِقٌ

الى آخر ما قال . وانما اوردنا هذه الايات لمكان وصف الحصى والثرى
وحياة العراء والهواء الطلق فيها .

هذا

ولابى الطيب بعد مواضع اُضالَ فيهن وُصِفَ الصبيحة بعص
الطول ورُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ اقْتِرَاحٍ مِنْ مَمْدُوحِيهِ . على أنه لم يخرج عن
مذهبه من جعل كل ذلك طرف من حيويته هو وحركته الدائبة . وحساسه
القوى بتجارب ما شاهد وانطبع في قواده ودفعه الى التغنى والبيان .

من ذلك آياته في البحيرة التي جعلها خاتمة مدحه لعلى بن ابراهيم

التنوخي وفيها قوله :

نَوْلَاكَ لَمْ أَتْرَكَ الْبَحِيرَةَ وَالْ	سُغُورُ دَفِيٍّ وَمَاؤُهَا شَبِيحُ
وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفَحُولِ مَزْبَدِهِ	تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَضَمُ
وَالضَّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسِبُهَا	فَرَسَانُ بُلُقٍ تَخُونُهَا انْجُمُ

كَأَنَّهَا وَالرِّيحَ تَضْرِبُهَا
كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَسْرٌ
نَاعِمَةٌ الْجِسْمِ لَاعِظَةٌ لَهَا
يُبْقَرُ عَنْهُمْ بَطْنُهَا أَبَدًا
نَعْنَتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا
فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مَطْوِقَةٌ
يَشِينُهَا جَرِيئُهَا عَلَى بَدَنِ
إلى آخر ما قال

والايات في جستها جيدة • وفي البيت الاول رضا بالدَّفءِ وَحُبَّة
له • ووازن بين هذا وقوله :-

وَقَدْ نَدَفَ الصَّنْبُرُ فِي طَرْقِهَا الْعُضْبَ

وقوله :

يَقْمِصُنْ فِي مَثَلِ السُّدَى مِنْ بَارِدٍ
يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنًا كَالْخَصِيَانِ

وقوله :-

يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ

والبيت الثاني فيه الاحساس بِقُوَّةِ المَوْجِ وازيادته وقد حاءت
هذه الصورة أكثر وضوحا في قوله :-

وَاحْذَرَهُ إِذَا كَانَ مَزِيدًا

وفي قوله :-

وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مِتْلَاضٌ

وقوله (والظير فوق الحباب) أثبت فيه انطباع صوريين ، الظير
والامواج وحسب ان اهتمامه بتشبيه امواج بالخيل وفرسانها اضع عليه
اكمال ما بدا فيه من أمر صورة الظير •

وصورة تشبيه امواج بالخيل اوضح في بيت التشبيه الذي جاء به في امسية
ذات الهاء الساكنة في مدح سف الدولة :-

وأَحْسَنُ مَنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ كَلَّهِ
حَيْثُ بَرَقَ فِي فَرْزَةٍ أَنْ تَسَائِهِ
عليها رِيضٌ لَهُ نَحْكُهُ سَحَابَةٌ

وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَهُ نَغْنٌ حَمَائِسُهُ
وَفَوْقَ حَوَاشِي كُرٍّ سَوْبٍ مُوَجَّهٍ

من الدرر سَيْطٌ لَهُ يَشْتَبُهُ نَاطِسُهُ
نَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَفِحَ بِهِ

يُحَارِبُ ضِدَّةً ضِدَّةً وَيُسَالِيهِ
إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَجَّ كَأَنَّهُ

تَجُولُ مَذَاكِيه وَتَدَأِي ضَرَاغِسُهُ

الشاهد قوله (تجول مذاكيه) - وغير خاف ان هذه الصورة تشبه
بامواج البحر ذهاب عيبه ريح منها بامواج البحر ذي الشبج الغضامط
وقوله :-

كَأَنَّهُمْ فِي نَهَارِهِمْ فَسَرٌ حَفَّ بِهِ مِنْ جَنَانِهِمْ خَمٌ

فيه ما قدم من قوّة شعوره بضوء القمر وبهاء اشعاعه • ثم احسبه
نظر فيه اي قول ابي تمام :-

نَرَبَا نَهَاراً مُشْتَبِهاً قَدْ نَمَاهُ

زَاهِرُ الرَّبِّبِ فَكُنْنا هُوَ مَقْصَرٌ

وَأَحْسَبُ أَنْ مَقْلَ أَنْدَرُو مَازْفِيلُ Agreeen Shade فَبِهِ صَبَّغَ مِنْ
فَلَّانَ مَعْنَى أَبِي نَدَامٍ إِذْ لَا يَكُونُ الظِّلُّ خَظَرًا إِذَا كَانَ عَلَيْهِ شُعَاعٌ مِنْ
خَضِرَةِ الْوَرَقِ .

وَعَجَزَ فَوَلَهُ :-

أَعْيَةُ الْجِسْمِ الْأَعْضَاءُ لَهَا لَهَا بَنَاتٌ وَمَالُهَا رَحِمٌ
مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَصْوِيرِ حَيَوَانٍ مَاءٍ دُونَ صَدْرِهِ - بَلْ يُونُسُ صَدْرُ
صَدْرِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ لَبِ الْبَيْتِ نَاعَةُ الْجِسْمِ ، مَا فِيهِ مِنْ قُوَّةِ الْإِحْسَاسِ
بَيْنَ مَسَاءِ الْبَحْرَةِ وَهِيَ سَاكِنَةٌ وَقَوْلُهُ :-

لَعَنَتِ الظِّيرَ فِي جَوَانِبِهِا وَجَدَتْ لَأَرْضٍ حَوْلَهَا الدِّيمَ
حَيِ الصُّورَةِ ، مَشْرِقَ بَاضُوءٍ وَالنَّسِيبِ وَرَنَاتِ مُوسِيقَا الطَّبِيعَةِ .
وَقَوْلُهُ :-

فَبِئْسَ كَسَوِيَّةٌ مَطْوُوقَةٌ جُرْدٌ عَنْهَا غَشَاؤُهَا الْأَدَمُ
كَأَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :-

وَعَيْنِ كَمْرَةِ الصَّنَاعِ نَذِيرُهُا مُحَجَّرُهُا مِنَ النَّصَبِ مُسَقَّبٌ
وَهُوَ جَيِّدٌ فِي التَّنْسِيْبِ . إِلَّا أَنَّ الصُّورَ ذَاتِي مَرْتٍ فِي قَوْلِهِ كَأَنَّهَا فِي
بَارِهَا فُسْرٌ « أَوْضَحَ وَأَجُودُ »
ثُمَّ قَوْلُهُ :-

نَسَبَتْهَا جَرَيْنُهُا عَلَى بَنَدٍ يَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَزَمُ
تَنْمَةُ لِمَا كَانَ ابْتَدَأَ بِهِ وَصَفَ الْبَحِيرَةَ مِنْ قَوْلِهِ :-

لولاك لم أَتَرَكَ الْبَحْبِرَةَ وَأَنْ غَوْرُ دَفِىءٍ وَمَاؤُهُمْ نُسَبُّم

وهو في جملته قريب من قوله في ما بعد . عندما رأى شعب بوان

أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعَانِ

وَلَا يَخْفَى أَنْ التَّعْبِيرَ هُنَا أَنْضَجُ وَأَجُودُ . عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي رَادَهُ

فِي الْمِثْمَةِ هُوَ عَيْنُ الْمَعْنَى الَّذِي اسْتَطَاعَ إِيْضًا حَافِهُ وَتَبَيَّنَ هُنَا . وَهُوَ

ضَرُورَةُ مَغَادِرَةِ الْخَفْضِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ أَجْلِ الْحَرْبِ ذَاتِ الشَّدَائِدِ . مَا

لَا يَجِدُ امْرَأً مِنْهُ بُدًّا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ .

وَاحْسَبْ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى عَيْنُهُ هُوَ الَّذِي أَجْمَلَهُ وَجَاءَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكْمَةِ

فِي قَوْلِهِ :-

وَمُرَادُ النَّفْثِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَى

غَيْرَ كَنْزٍ الْفَتَى يَلْقَى الْمَنَآيَا كَالْحَاتِ وَلَا يَلْقَى الْهَوَانَ

وَالْإِدْعَاءَ وَالْقَزَمَ مِنْ مَعْدِنِ الْهَوَانِ وَضَرِيَّتِهِ بَلَا رَيْبٍ .

هَذَا وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا لَامَبْتَهُ الْأَرْجُوزَةُ . الَّتِي وَصَفَ بِهَا الصَّيْدَ مَعَ عَضْدِ

الدَّوْلَةِ وَمَطْعَمَهَا :-

مَا أَجْدَرُ الْأَيَّامَ وَالْيَالَى .

وَوَزْنَهَا مِنَ السَّرِيعِ مُسْتَفْعِلِينَ مَفْعُولِينَ ، وَأَنْ شِئْتَ عِدَدَتَهُ مِنْ "رَجَزٍ

دَخَلَهُ الْقَطْعُ - مُسْتَفْعِلٍ وَكَأَنَّ مِنْ أَبِي هَذَا كِرَاهَ أَنْ يُنْصَارَ

بِشَيْءٍ أَصْهَ وَتَدَّ إِلَى سَبَبٍ كُلِّ مِنْهُمَا أَصْلٌ فِي نِظَامِ الْعُرُوضِ وَفِي هَذَا

نَظَرٌ . وَالْأَرَاغِيزُ الْمَشْطُورَةُ كَأَنَّهَا أَدْنَى إِلَى النِّشْرِ مِنَ الْقَصِيدِ الْمَحْكَمِ ، وَاحْسَبْ

هَذِهِ الْكِسَةَ مِنْ أَبِي الطَّيِّبِ لَوْ قَدْ كَانَتْ فِي أَسُوبِ قَصِيدِهِ الْمَحْكَمِ نَكَانَ

مَكَانَهَا مِنْ شَعْرِهِ أَعْلَى وَأَفْجَلُ *****

ومع ذلك فهي فريدة حقا في بابها لما اشتتت عليه من ضروب التأمل
والنظر الدقيق والنجارب السريعات المتلاحقات مع سلاسةٍ وانفاسٍ مَرَّحٍ
وفكاهة .

بدأ بمقدمة قصيرة تغنى فيها بنىء من الفخر اولا :-

ما أجدر الايام واليالي بأن تقول ما لله ومالي
لا أن يكون هكذا مقالي فتىً بنيان الحروب صالي
وهذا كما ترى فيه معنى ضيق نفسه بما لزم اليه من صراع .
منها شرابي وبها اغتسالي لا تخضر المحتساء لي ببال
وأحسب نفى الفحشاء عن نفسه دعاء اليه قوله (وبها اغتسالي) في قافية
الشر الذي قبله . فهذا من باب تداعى المعانى كما ترى . حتى اذا قال :
وكيف لا وانما دلالي بفارس المجروح والشمال
أخذ في مدح عضد الدولة مختصرا ذلك فذكر شجاعته وانتصاره على
الاعداء .

حتى اتقت بالقر والاجفال فهالك وطائع وجالى
ثم أخذ من بعد في التماس اللذات الشريفة لنفسه بالصييد وهو
نزهة المولك .

سارى لصييد النوحس في الجبال وفي رفاق الارض والرمال
على دماء الانس والاوصال

وهذه صورة فظيعة . وزعم ابن بطوطة أنه لما كان بالهند ذهب الى وليمة
عند أحد الامراء . فأصاب حافراً فرسه بعرض أوصال القتلى عند
باب فتأمل .

مُنْفَرِدِ الْمُهَرِّرِ عَنِ الرَّعَالِ

ثم أخذ يصف سير الخيل الى الصيد في تدير محكم •
ما يتحركن سوى انسلال فهن ينضرن على التصهل
كله عليل فوقها مختال يسسك فاه خشية السعال
وهذا بلا ريب أخذه من قول رؤية يصف الصائد حيث اختفى ينظر
ورود الوحش :-

فَبَانَ وَالتَّفْسُ مِنَ الْحِرَاصِ الْفَشَقْ

فِي الزَّرْبِ لَوْ يَمْضَغُ شَرْبًا مَا بَصَقَ

أي من حرصه الشديد ألا يسمعه الوحش فينفر كن في زربه وهو
مخبؤه لو مضغ حنظلا - والشري هو الحنظل وهو أمره الاشياء -
ما بصق •

وليت شعري عن رؤية كيف تنقل عن صوّت مضغ الحنظل نفسه
ولعله ان يعتذر معتذر له بأنّ لوّ تميد عدة الوقوع اذ هي حرف ما كان
سيقع لوقوع غيره •

يَمْسِكُ فاه خَشْيَةَ السَّعَالِ مِنْ مَضْغِ الشَّسِ اى الزوال
ثم أخذ بعّد في صفة صحراء الارزن وحيوانها وما روعها به
الامير وصحبه من دمويّة واصطياد •

سَقِيًّا لَدَشْتِ الارزن الضّوال

بَيْنَ المروج الفيج والأغيا

هذه هي الصورة الكبيرة العامة - صحراء واسعة ممتدة بعضها مروج
وبعضها غاب •

داني الخنايص من الأشبال
مُسْتَشْرِف الدُّثْبِ عَلَى الْغَزَالِ
مُجْتَمِعِ الْأَضْدَادِ وَالْأَشْكَالِ

الخرنايص صغار الخنازير ... والمكان كما ترى أشبه نىء الغابات
سبحية التي تجعل الآن ملاجىءً لنادر الوحش في أواسط أفريقية مثل
كس وجنوب السودان وغير ذلك من البلاد :

كَأَنَّ فَنَّا خُسْرَ ذَا الْأَفْضَالِ
خَافَ عَلَيْهَا عَوَزَ الْكَسَالِ
فَجَاءَهَا بِالْفِيلِ وَالْفَيْئَالِ

اذ لم يكن دشت الارزن نفسه مكان - فيلة - ثم هذه فيلة من
سوع المروض المقاتل . فهي كالخيل ليست من الوحش ولكن امتداد
بشر .

ثم اخذ أبو الطيب يصف ضروب الوحوش فافتن في ذلك أي
سنان مثل قوله في وصف الياثل وقرونهن الطوال الثقال :

وَلِدْنٌ نَحْتُ أَثْقَلَ الْأَحْصَالِ
إِذَا تَلَفَّتْنَ إِلَى الْأَظْلالِ
أَرَيْنَهُنَّ أَشْنَعَ الْأَمْثَالِ
كَأَنَّمَا خُلِقْنَ لِلْأَذْلالِ
زِيَادَةً فِي سُبَّةِ الْجَهَالِ

لأن قرونها طوال ثقيل بلا جدوى فهي مَسَا كَأَنَّهُ لَه يُخْلَقُ إِلَّا لَان
سب به من يسب فيقال هذا ذو قرون إذا كانت زوجته تَخُونُه .

والعُضْوُ ليس نافعا في الحال

لسائر الجسم من الخيال

ثم اخذ في صفة هذه الدّحي المضحكات . وأنها ليست لها سبب .
جسّع فادر :-

وأوفت القدر من الأوعال مَرْتَدِّيَاتٍ بِفِئِى الضَّال
يعنى قرونهن شبهها بقسى الضال وهو ضرب من السّدر مستقيم
العصون ولعسري إن القدر فرونهن انفسها ما كانت تُجْعَلُ افواس فيكن
في ما ذكروا شديداً النزاع :

لها لِحَى سَوْدٌ بلا سبب تَصْنَحُ للاضْحاكِ لا الإجلال
ثم اخذ في صفة هذه الدّحي المضحكات . وأنها ليست لها سبب .
بدليل قوله في هجائه كافورا وصحبه :

أغاية الدّبن أن تُحْمُوا شواربكم

الايات

وانها تُضَخِّخُ بالابوال والزبد وليت شعري عن أبى الضيب
كيف كان يقول لو علم أن بعض الناس هكذا يفعلون .

كُنْ أَثِيثَ نَبْتِهَا مِتْفَالٍ لِمِ نَعْدَ بِالسِّتِ وَلَا التَّوَالِ
تَرْضَى من الأدّهانِ بالأبوالِ ومن ذكى السِّتِ بالدّم
لو سُرِّحَتْ في عارضِ مُحْتَالٍ لعدّها من شبكات المال
وغير المال من أعراض هذه الدنيا الزائفة - ولا زالت هذه التجارة بين
البشر ذات رواج .

تم أخذ يصف امقتلة الرهيبة التي نلت لتلك الوحش اللاتي كن قبل
من آمنات *

أودعتها عتل الرجال في كل كبد كبدى نصال
فهن يهوين من القلال *

أي رؤوس الجبال

مقلوبة الأضلاع والإرقال

اذ صرن جئز بعد نبض الحياذ ..

يرفنن في الجوى على المحال

أي على فقار الظهر ...

في طرق سريعة الإيصال

لا يتسكين من الكلال

ولا يحاذرن من الضلال

لأسف

ثم طفر خياله فذكر جزيرة العرب . حيث بسطة الي جابتها
كئبه جوب الرداء *

جابت بسطة جوب الرداء بين النعم وبين المها

فخاف على وحشها ووحش نظيراتها دوان الشعاع راماها والضباب

والاورال من بأس الأمير أن يصيبها مثل ما أصاب الفدر

لئلا بدشت الأرضان :

بحس تجدد منه في بلبل يخفن في سنسى وفي فيال

سنسى جبل طبع وقيال لبنى عامر

مير الضباب والأورال والخاصبات الربد والرمال

والخاصباتُ النعامِ والرئالُ أولادهن جَمْعُ رَأْلٍ
الطبي والخنساءِ والذئبالِ يسَعْنُ من أخباره الأزوالِ
أي العجبية •

ما يَبْعَثُ الخرسَ على السُّؤالِ
فحولتها والعوذُ والمتأى نودُّ لو يُنَحِّفها بَوائِ
يَرَكِبُها بالخطمِ والرحالِ

أي فتَصِيرُ أليفةً مُذْعِنَةً كالأبلِ والبقرِ والضأنِ والمعزى
يَتَوَمَّنُها من هذه الأَهْوالِ
ويَخْمُسُ العُشْبَ ولا تُبالي

أي يأخذ منها خُمُسَ العشبِ فيجعله من نصيب غيرها ممن تَأَلَّفَهُ
ابنُ آدمَ من قبل

وفي الوحشِ من ضبابٍ وأورالٍ وبعضِ الغزلانِ مراكِبُ للجن فلا بُدَّ
من فهر الجن -

فأكسَلُ أبو الطيب طَفَرَهُ خياله البديعة بقوله :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَرَدُ السَّعَالِ

وهن نساء الغيلان . ضَرَبَ من الجن . وقالوا مِنْهُنَّ نِسَاءُ صَدَقَ .
وأشار الى هذا المعنى أبو العلاء في رسالة الغمران حيث ذكر حَدِيثَ
نَابِطِ شِرا وأبياته التي يقول فيها :

إن الذي نَكَّحَ الغِيلَانَ في بَلَدٍ

ما ضَلَّ فِيهِ سَاكِيٌّ وَلَا جَادَا

بَحِيْثٌ لَا يَعْثِرُ الْغَادِي عَسَايَتَهُ
وَلَا الظَّالِمُ بِهِ يَبْغِي تَهْبِئَاتِهِ
وَقَدْ لَهَوْتُ بِصُقُورٍ عَوَارِضِهَا
بِكُرٍّ تَنَازَعْنِي كَأْسًا وَعَنْقَادًا
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَعَقْبُهُ
عَصْرُ الْمُنِيبِ فَقُلْتُ فِي صَالِحٍ بَادَا

ولا استبعد أن يكون أبو العلاء قد أخذ فكرة رسالة الغفران كلها من
سَطَحَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي هَذِهِ اللَّامِيَّةِ - كَالَّذِي تَقْدَمُ مِنْ طَنْبِ الْوَحْشِ أَنْ
يَجْعَلَ الْأَمِيرَ عَلَيْهَا وَالْيَا وَادْعَانَهَا لِنُرُكِّبَ ثُمَّ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ بَعْدَ مِنْ
سِفَةِ مَطَارِدَةِ السَّعَالِيِّ عَلَى ضُحُورِ الْإِبِلِ فِي اللَّيَالِي غَيْرِ الْمُقْصَرَانِ •

لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِ
فِي الظُّلَمِ الْغَائِبَةِ الْهَلَالِ
عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ الْأُبَّالِ

أي الطويلة الصبر على العطش •

فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الْأَمَالِ
فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا سِوَى الْمَحَالِ
فِي لَأَمَكَانٍ عِنْدَ لَا مَنَالِ

وَفِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ شَوَاهِدُ قَوِيَّةٌ مِنْ مَعْنَى انْتِفَاعِ أَبِي الْعَلَاءِ بِأَخِيْلَةَ هَذِهِ
مَرْجُوزَةٍ - مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي نَعْتِهِ مَرَاكِبُ الْجَنِّ عَلَى لِسَانِ أَبِي هَدْرَشٍ :
حَسْبُ فِي الْجُسُجِ خَيْلٌ لَهَا أَجْنَحَةٌ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْأُنَيْسِ
نَسَبٌ نَسَبُ ابْصَارِكُمْ مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعَيْسِ

كأنه يعلق بهذا على قول أبي الطيب :

في الظُّلُمِ الغائبة الهلال على ظهور الإبل الأَبَّالِ
كَأَنَّهُ كَوْنُ الْإِبِلِ أَبَّالًا وحده لا يكفي . فينبغي أن يكون غريبه
الهيئة بَيِّنَ النعام والإبل . فهذا أشبهه بالجن كما ترى . ولعله أخذ
قوله (بين نعام وعيس) من قول أبي الطيب :

بَيِّنَ النعام وبين المها

ومع أن المراد بَيِّن هنا المتوسط . لا يخفى أن صورة ناقة أبي
الطيب بَيِّن هذين الصنفين قد تسخ الخيل سُكَّالًا أشبه بها نعته أبو
العلاء وهذا بُعدُ بابٍ ما يطول فيه مجال الاستقصاء فنكتفي
منه بهذا القدر أن شاء الله .

هذا واختتم أبو الطيب لأمينه بقوله :-

وربَّ قبح وحلىٍ تقالِ أَحْسَرُ منها الحُسْنُ في المعطالِ
فَخَرَّ الفتى بالنفس والفعالِ من قبله بالعمِّ والاخوالِ
واحسبه جسع الاخوالِ لما فيه من معنى الاء . كأنَّ مراده ، بالاء
وعشيرتها ، . وذلك لأنه كان يسكنه أن يقول بالعم أو بالخال . وليس
بجَيِّدٍ جَوْدَةً هذا والله اعلم .

وهذه المعاني بعد . حُسْنُ المعطالِ والفخر بالنفس والفعالِ فديسة
عميقة في قلب أبي الطيب وقد مر بك قوله :-

أَغْنَاهُ حُسْنُ الْجِيدِ عَنِ لُبْسِ الْحَلِيِّ
وعادة العري عن النفض

كأنه مُضَخَّخٌ بِصُنْدُ

هذا يقوله في غزال من ارجوزته « ومنزل ليس لنا بمنزل » وقوله
وعادة العرى عن التفضل « يستفاد منه أن النساء على زمانه كنَّ ربما تزين
بعض هذا • وقوله من البائية :-

لَا بَرَزْنَ من الحثاء مائِلةً أوراكن حَقِيلانِ العراقيب
صريح في هذا المعنى •

وقوله :-

ابن من بعضه يَنُوقُ آبا الباحث والنَّجَلُ بَعْضُ من نجله
لَا يَذْكُرُ الجدود لهم من نَفَرٍ وه وانفَدُوا حَيْدَهُ
وقوله :-

في الاجداد تغلبها جميعا على الاولاد اخلاف اللئام
ببقائع من كل فَضْصٍ بأن أعزى الى جد همام
وهذه النهاية أعنى نهاية لاميته حيث قال :-

حز لفتى بالنفس والفعال من قبله بالعم والاخوال
من سنخ ما ابتدأ به اولا حيث قال :

ما أَجْدَرُ الايام والليالى

بأن تقول ماله ومالى

لا أن يكون هكذا مقالى

فتى بيران الحروب صالى

منها شرابي وبها اغتسالى

لا تَخْطُرِ الفحشاء لى ببال

في هذه الأرجوزة من خفة الروح وغفوية الاداء وسخاء الطبع ما كأنه
مباين للمألوف من سخونة ابي الطيب وذكورة شخصيته وصرامتها . ولذلك
ما زعمنا أننا فيها في بابها فريدة . عى ان جميع هؤلاء الصفات اللاتى هي
بهن فريدة مما اخترته عبقرية ابي الطيب في أغوارها دهرًا . وهو بعد
القائل :-

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْذُ الْمُسْتَعِيرُ أَسِيرَ الْمَنِيَا صَرِيحَ الْعُطْبِ
رَمَاهُ الْكِنَاشِيُّ وَالْعَامِرِيُّ . وَتَلَاهُ لِنَوَاجِهِ فِعْلُ الْعَرَبِ
كَلَا الرِّجْلَيْنِ اتَّكَى فَتَنَّهُ فَأَيْشُهُمَا غَلَّ حُرَّ السَّبَبِ
وَأَيْشُهُمَا كَانِ مِنْ خَنَفِهِ فَإِنَّ بِهِ عِضَّةً فِي الذَّنْبِ

فهذه من معدن

لو سُرِّحَتْ فِي عَارِضٍ مُحْتَالٍ لَعَدَّهَا مِنْ نَبِكَاتِ الْمَالِ
بَيْنَ قَضَاةِ السُّوءِ وَالْجُثَّالِ

والقائل :-

صَحِبْتُ فِي الْفُلُواتِ الْوَحْشَ مَغْتَرِبًا
حَتَّى نَعَجَّبَ مِنِّي الْقُدُورُ وَالْأَكْم

ومحل الاستشهاد ههنا ان هذا البيت قاله في ميسمته .

واحراً قلباه ممن قلبه شبه

وكأنما يأنس به إلى الوحش من مجلس سيف الدولة . وقد ذكر ابن
هشام صاحب مغنىبيب واو الثمانية فنسب أمر التمسك بقضيتها الى
بعض ضُعفاء النحاة مثل ابن خالويه . ويبدو لى أنه ما نص على ابن خالويه

سَعِيفاً فِي النِّحَاةِ إِلَّا لَمَّا كَانَ مِنْ مَكَانِهِ فِي عِدَاوَةِ أَبِي الطَّيِّبِ وَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ
سَجَّهَ بِمِفْتَاحٍ لَمَّا انْشَدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ . قَالُوا فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحُجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ
يَعْنَى بِالْحَاسِدِ هَهُنَا جَسَاعَةُ الْحَسَادِ كَلَّتْهُمْ ابْنُ خَالُوَيْهِ وَأَبَا فِرَاسٍ
وَهُمْ جَرَا

وَمِنْ هُنَا تَرَى وَجْهَ سَوَابِهِ إِذَا اسْتَقْرَبَ الْوَحْشَ بِالْقُورِ وَالْأَكْمِ دُونَ
هَؤُلَاءِ .

وَمَا أَبْعَدَ فِي هَذَا الَّذِي صَنَعَهُ عَنْ مَذْهَبِ الشَّنْفَرِيِّ حَيْثُ قَالَ :-

فَيَسُّوْا بَنِي أُمِّى صُدُورَ مَطِيكٍ
فَإِنِّى إِلَى قَوْمٍ سَوَاكُم لَأَمِيَلُ

وَلِى دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدَ عَمَلَسٍ
وَأَرْقَطَ زُهْنُولٍ وَعَرْفَاءَ جِيَالِ

هَمْ أَهْلُ لَا مَسْتَوْدَعِ السَّرِّ ذَائِعٍ
لَدِيهِمْ وَلَا الْجَانِىَ بِمَا جَرَّ بَخْذَلِ

وَقَالَ يَذْكُرُ بِأَسِّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي الْعَرَبِ وَالرُّومِ فِي لَامِيَّتِهِ أَجَابَ
-مَعَى وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ « :-

فَالْعَرَبُ مِنْهُ مَعَ الْكَدْرِىَّ طَائِرَةٌ

يَعْنَى الْقَطَا وَارْتِبَاطُهُ بِالْعَرَبِ وَارْتِبَاطُهُمْ مَعْرُوفٌ وَهَذَا تَعْلَمُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ
-حَبِّ اللَّامِيَةِ :-

كَأَنَّ غَايَهَا حَجَرْنِيَّهِ وَحَوْلَهُ

أَضَامِيَّتُمْ مِنْ سَفَرِ الْقِبَائِلِ رُحِّلِ

فهذا

والروم طائفة منه مع الحجل

والحجل شاملي المنزع وهو من حسان الطير اكبر من الحمام والنقطة

وما الفرار الى الأجيال من أسد

تسشى النعام به في معقل الوعل

وكلا النعام والوعل فروران وما اراد بالنعام هنا إلا أعداء سيف الدولة

من العرب اذ اعتصموا منه بالجبال كما تصنع الوعل - ومعرفة ابي الصيب

بالصيد والصحراء يتردد ذكر الاسد والنعام والوعل والمهمل والغزلان - لا

على سبيل التقيد والمحاكاة ، في شعره كثيرا - من ذات ما تقدم ومن قوله :

فَتَيَّتْ معترماً ولا أسد ومضيت منهرماً ولا وعل

وفي الايات اللامية المتقدمة قوله :-

فكلما حملت عذراء عندهم فإنما حلت بالسبى والجمل

جاز لدروب الى ما خلف خرسنه ، وهي من أرض الروم وزال عنها

وداك الروع لم يزل *

وكأن استغراب الروم وبني عمهم الفرنجة لجس ونسبتهم ييه الى

دار العرب والاسلاء قد كن منذ ذلك الزمان وما أحسب أن احدا أبدا عن

هذا المعنى كما صنع أبو الطيب ههنا - فهذا من باب ثبانه على لمحت ابي

لا ينكر ما نبه عليه بن الاثير في امثل السائر *

وذكر أبو الطيب شعب بوان فقال :-

مغاني الشَّعْبِ طيبا في المغاني

والنصَّب هو الوجه والتقدير تزويد طيبا أو تَضِيب طيبا أو طيبا لها

بِمَنْزِلَةِ الرَّيِّ — مع مَنْ الزَّمَانِ

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
وكأنه هنا يوم نفسه على عظم ارتياحه لهذا المكان وفرحه به

وفي القصيدة حنينٌ إلى بلاد العرب كأنه يحمل في طيّانه نوعاً من الشعور
الخفى بقرب أُمّية :

مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا مِليَانُ لَسَارٍ بترجمان

هنا أبو الطيب مباعد نفسه عن بهجة منظر الشعب ومرح مراه مخالطته
نوعاً من ترددٍ بدعوة واستحيائها ثم إذا به يدعوه المنظر الكريم
إلى أن ينسجهم معه ويتمتع به - فكفى عن نفسه بحصانه . وأوردت
مؤرد الجماعة . لما يناسب دلالة روح التباعد والتردد والاستحياء
ونذكر هنا مقال ابن رثيق أن أبا الطيب كان مسيئاً نساً إلى الخيل
في الباب الذي يقع فيه ذكر الأبل والنسيب ويستعسل فيه بعض
المولدين ذكر الحقائق والنواوير البديهة فقد جسع أبو الطيب
ذات كنه جميعها ههنا .

صَبَّتْ فَرَسَانَا وَالْخَيْلَ حَتَّى

خَشِيتُ وَأَنْ كَرُمَ مِنْ مِّنَ الْحَرِيرِ

وانما كرمتم لانها عربية مثله . وكعربية كانت غريبة - نستحل الحرم

والكناية كما قد منّا واضح ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

ثم اخذ جمال الشعب وفتنته يغلبان عليه :

غَدَوْنَا تَكْنُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ

على أعرافها مثل الجبان

فِسرَتْ* وفد حَجَبْن الشَّمْسَ عني
 وجئْن من الضياء بما كفاني
 ونسى الفتى العربي مفاوزه بلادِ العرب وكلَّ قعرٍ :
 عني مراعِيه وزادِي رُبْدُه
 وألقى الشَّرْقُ منها في ثيابي

دَنائِيرا تَفِرُّ من البنان

ولا يخفى أن الشاعر ههنا انسجم مع رشاقة حركة الغصون ولطف
 استدارة الشعاع وتحركه على الثياب وهو الكريه وحصانه الكريه كلاهما
 سائر* ومنتش بهذه الكأس الدهاق من خسر الحياة :-

لها ثمر* تشير اليك منه بأشربة وقفن بلا أواني

هذا البيت كما ترى ذروة . من حيث اتصاله بسعني ما قبله اذ فيه قد
 اختفى شعور الغربة والبعد كل الاخفاء . وبلغ الافتتان أوجّه ومن
 حيث انه وصف حيّ دقيق ، وليت شعري عن اندرو ما قيل حيث قال :-

The nectarine and the curious Peach
 Into my hands themselves do reach.

هل نظر في قوله the curious Peach الى قول
 شاعرنا :-

غريب الوجه واليد واللسان ؟

لها تسر* تشير اليك منه بأشربة وقفن بلا أواني

تأمل قوله :- وقفن بلا أواني لاريب نظر أبو الطيب إلى قول ابن
 الرنومي في العنب « كأنه مخازن البلور » ولكن هذا تشبيه بارع ليس الا
 لا يذهلنا بالحيوية وصِدْق التجربة كما يذهلنا قول ابي الطيب •

وأمواد" تَصِلُ بِهَا حِصَاهَا

صَكِيلَ الْحَنَى فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

وهذا البيت فيه الرؤية وسماع الصوت مع استحسان جمالِ الحصى
عنه رِقَاقُ الماءِ وحكايةُ جميع ذلك صَوْتًا ومنظرًا من طريقِ الجناسِ في
الصاداتِ والتشبيهِ في قوله صِيلَ الْحَنَى فِي أَيْدِي الْغَوَانِي *

والمعنى قديم في نفس ابى الطيب بآية قوله :

شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِينِهِ

وروض نرى لساء فيه خريرا

وقوله :

بلاد" اذا زارَ الحسانَ بغيرها حصى ثربها ثَقَبْنَه لِسَخَنَق

ولكنه ههنا أحكسه وبلغ به غايةَ الجودةِ *

وقد اخفت الاندلسية مَرَقَتَهَا مِنْهُ حَيْثُ قَالَتْ :

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ

سَقَاهُ مَضَاعَفُ السَّيْثِ الْعَيْمِ

نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَيْنَا

حَنُوَ الْمَرْضَعُونَ عَلَى الْقَطِيمِ

وَأَسْهَقَانَا عَلَى ظَنَمٍ زُلَالَا

أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّادِيمِ

يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى

فَتَلْمِسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النِّظِيمِ

والايات في جُمْلَتِها مُنْأَثَرَةٌ بِأَيِّبِ الشَّعْبِ . صِيفَةُ الظِّلِّ
وَالْخَفَضِ وَالنَّعْمَةِ ثُمَّ بَيْتُ الْحَصَى يَنْظُرُ مَبَاشِرَةً اى بَيْتِ اَبى
الطيب وَيُخْفَى هَذَا النِّظَرُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الْحَسَنَةِ مِنْ تَوَهُّمِ الْحَسَنَاءِ
أَنَّ عَقْدَهَا انْقَصَمَ فَتَمَسَّهُ وَمَا هُوَ اِلَّا حَصْبَاءُ ذَلِكَ الْمَكَانِ

وهذا الذي أخفت به سرقها من بَيْتِ مَعَانِي الشَّعْبِ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ
بَيْتِ « تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَارِقِ » وَفَدِ سَبَقَ لَنَا التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ .

وايات الاندلسية - بعد جيدة في بابها ذات نَجْرِبَةٍ مُسْتَنْقَلَةٍ
تَحْمِلُ طَابَعَ الْأَنْدَلُسِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ ظَرْفَاءُ أَهْلِهَا مِنْ حُبِّ الْإِسْتِغَاثِ
بِالنَّشْرَةِ فِي الْأَوْدِيَةِ ... وَفِي شِعْرِ ابْنِ زَيْدُونَ شَوَاهِدُ حَسَنَةِ مِيسِ
يُصَدِّقُ ذَلِكَ . وَهَذَا يَنْبَغِي إِلَيْهَا لَا تَذَكَّرُ مِنَ الْفَاكِهَةِ شَيْئًا . وَإِنَّمَا
تَذَكَّرُ الدَّوْحَ وَالظِّلَّ . فَهَذَا مَعَ حُلَاوَةِ الرُّوحِ الَّتِي فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، مَا
يَجْعَلُنَا نَقْطَعُ بِاسْتِقْلَالٍ نَجْرِبَتَهَا .

هذا ...

وبَيْت :

صِيلَ الْحَى فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

كَأَنَّهُ انْصَرَفَ عَنَّا افْتَنَّ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْ دُعَاءِ الشَّارِ وَالْأَنْسَرِبَةِ
الْوَاقِعَاتِ بَلَا أَوَانَ لَهُ .

وَسَبَّحَ خَيَالَهُ مَعَ هَذِهِ الْإِنْصِرَافَةِ إِلَى ذِكْرِ الشَّامِ .

وَلَوْ كَانَتْ دِمَشْقُ ثَنَى عِنَانِي

لَبِيقُ الثَّرْدِ صِيْنِي الْجَفَارِ

يَكْنُجُوجِي مَا رُفِعَتْ لُصَيْفِ

بِهِ النِّيرَانِ نَدَى الدَّخَانِ

أي كريم عربي ... وفي هذا البيت روح تَرْتَمِ خفى بسعنى قوله من قبل :

ولكنَّ الفتى العربىَّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ثم اتبه مرة اخرى . وهو بَعْدُ منتبه لم ينقصم عن ذلك الى شعب
بوان :

يحل به على قلب شجاع ويُرْحَلُ منه قلب جبان
الضير في به « يَعُود على الشعب لان سياق الحديث عنه . يَدُلُّك
على ذلك قوله « ولو كانت دمشق » أي لو كانت هذه الرياض غوطة دمشق
لكان وكان وفي لو ههنا معنى من معانى التسنى البعيد ... ليت ان
غوطة دمشق كانت هكذا أَمْنًا وَخَفَظًا وَإِذْنٌ ما كُنْتُ اغادرها وأُضْطَرُّ
لأن اكون غريب الوجه واليد واللسان وِدِمَشْقُ ههنا انما هي
رمز للشام كله ، ولما كان فيه من عَهْدِ سيف الدولة وحلب والعراق
جميعا

ولكنَّ هذه الرياضَ شعبُ بوان . وقد اقدمت عليه وأنا متَهَيِّبٌ
وهأنذا أُعْجَبُ به كلُّ الاعجاب

وقد نعلم أن ابا الطيب في ظاهر الامر أفبل على الشعب بقلب جبانٍ
ورحل عنه بقلب شجاع ولكنَّ تعبيره الذي ذَكَرَ أَصْدَقَ وقد نصَّ
عليه نصًّا في ما بعد :

مَنَازِلُ لم يَزَلْ منها خيالٌ يُشَيِّعُنِي الى الثوبنَدَجَانِ

أي منازل الشام والشَّعب جميعا ومثل هذا المزج عند ابي
الطيب كثير ، وشاهدُ الحال يَدُلُّ على أنَّه تَذَكَّرَ مَنَازِلَ دمشق وهو

بأرض فارس . وسياق قوله يشعر بأنه يتحدث عن الشعب وجماله وبقاء ذلك
في نفسه البقاء الطويل .

إذا غنى الحمام الورق فيها أجابته أغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام إذا غنى وناح إلى البيان
ولا أدري « من بالشعب » أراد به أبو الطيب أحداً غير نفسه وشأن ما
بين قوله وهنا وقوله من قبل في البحيرة :

يشبها جرّيتها على بلدٍ تشينه الأدياء والقزَم
على أن ظاهر قوله يستفاد منه أنه غنى عَجْسةً من كانوا بالشعب
ورُوح الأدياء لا يحتمل هذا التأويل . وقوله :

وقد يتقارب الوصفان جداً وموصوفاهما متباعدان
يثقوى ما نذهب إليه هنا ، إذ الحمام يُغَنِّين ضرباً ، وهو كذلك
يصنع ، بهذا النشيد الفذّ الخالد :

بقول شعب بوان حصاني أعنّ هذا يُسار إلى الطّعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
وإذ حصان أبي الطيب فيه معنى الكناية عن نفسه فإنه لم يغادر الشعب
إلا كارها كما ترى .

وأنس أبي الطيب إلى حصانه ومودته له لا يخفى . وهذا الذي جعل
ابن رشيق ينص على ما نص عليه حيث قال :-

وقد ذكر أبو الطيب الخيل في كثير من شعره وكان يؤثّر بها على الإبل
لما يقوم في نفسه من التهيب بذكر الخيل وتعاضي الشجاعة فقال يذكر
قدومه إلى مصر على خوف من سيف الدولة :

وَيَوْمٍ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذُنَيَّ أَغْرَى كَأَنَّهُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلُمَاءِ أُذُنِي عِنَانِهِ
وَأَصْرَعَ أَيَّ الْوَحْشِ قَفْقَيْتَهُ بِهِ
وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ
إِذَا لَمْ تَشَاهِدْ غَيْرَ حَسَنٍ شَيَاتِهَا

واستشهاد ابن رشيق بهذه الايات جيد . لما فيها من صورة الوصف
مع صدق التجارب وقوة الروح المفصح بها . والبيتان الاولان شديدا حيوية
الانطباع والاخيران ذروة من حكمة القول وبيتا مغاني الشعب :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَانَ حِصَانِي اَعْنِ هَذَا يَسَارِ بِي الطَّعَانِ
أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَسْكُمْ مَفَارِقَةُ الْجَنَانِ

فيها معنى هذه الصداقة التي ذكرها ابو الطيب في البائية وفيها الحكمة
ذات العُمُقِ الفلسفي التي بحرّها جعل يغرف ابو العلاء المعري من بعد .
وفيها بَعْدُ الروح الفَكْهِ السَّخِرِ الذي احسننا من انفسه القويّات في
الارجوزة .

مَا أَجْدَرُ الْإِيَّامَ وَاللَّيَالِي

وقصيدة شعب بوان من فرائد الشعر - لا أحسب ذلك في شعر ابي
الطيب وحده ولا بالنسبة الى شعر العرب وحدهم
وفي القصيدة بَعْدُ من مزايا الشاعر وإحسانه سوى وصف الطبيعة
ما لَا يَتَّسَعُ لَهُ نِطَاقُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ...

ويستوقفني بعد قوله :-

حَمَى أَطْرَافَ فَارَسِ شَمْرَى

يَحْضُرُ عَلَى التَّبَافَى بِالتَّفَانَى

بَضْرَبَ هَاجَ أَطْرَابِ الثَّمَنَايَا

سِوَى ضَرْبِ الْمُثَالِثِ وَالْمَثَانِي

فهذا كَأَنَّهُ فِيهِ صَدَىٍّ مِنْ أَغَانِي شِعْبِ بَوَانِ حَسَائِثِهِ وَفِيَانِهِ وَتَسَاوَرِهِ
الغريب :

كَأَنَّ دَمَ الْجَسَاجِمِ فِي الْعُنَاصِي كَسَا الْبُلْدَانَ رِيسَ الْحَيْقَطَانِ

مِسْكِينِ الْحَيْقَطَانِ لو كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ رَأَى فِي الشَّعْبِ مَا
كَانَ خَلَطَ جَمَالَهُ بِصُورَةِ الْجَسَاجِمِ وَالْعُنَاصِي وَالدَّمَاءِ .. وَلَقَدْ بَدَّكَرَ خَطُّهُ
فُظَاعَةَ مَنَظَرِ الْقَتْلِ وَالدَّمَاءِ بِالرِّيْحَانِ وَالشَّقَائِقِ حَيْثُ قَالَ :-

وَلَا تَرِدُ الْغُدْرَانُ إِلَّا وَمَاؤُهَا مِنْ الدَّمِ كَالرِّيْحَانِ تَحْتِ الشَّقَائِقِ

وقريب منه قوله في « النارنج والاغصان » .

وههنا رَيْشُ الْحَيْقَطَانِ

هل كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ عَامِدًا فِي جَمِيعِ هَذَا لِي مُعَارَضَةً مَذَاهِبِ ضَعْفَاءِ
شُعْرَاءِ زَمَانِهِ مِنْ وَصْفِهِمُ النُّوَاوِيرَ الْبَلَدِيَّةَ عَلَى حَدِّ نَعْبِيرِ ابْنِ رَشِيقٍ وَمَا
بَسَجَرَاهَا مِنَ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانِ

.... الرَّاكِبُ الْخَيْلَ كُلُّهُ وَإِنْ كَانَ بِالنِّيرَانِ غَيْرَ مَوْسِمِ

أَمْ يَا هَلْ تَرَى عَطْفَ أَبُو الطَّيِّبِ عَلَى الْحَيْقَطَانِ - وَهُوَ طَائِرٌ مَيْيَحٌ دَاجِنٌ
مِمَّا يَتَأَلَّفُهُ النَّاسُ وَيَذْبَحُونَهُ وَيَنْتَفُونَ رِيْشَهُ ذَا الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ كَمَا يَصْنَعُونَ
بَرِيْشَ الدَّجَاجِ

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يُسار الطعان
أبوكم آدم سَنَ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
رحم الله أبا الطيب فقد كان مُبْدِعاً مبرزاً في جميع ما راض عليه
بيانه من ضروب القول فأجاد وحسبنا بُعد هذا القدر من
حديثه وحديث الطبيعة •

• والله الحمد اولا وأخيرا •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً
كثيراً •

عبدالله الطيب،

١٩٧٧-٣-٢٤

* * *

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : رضا الخطاط
التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٣٩ لسنة ١٩٧٧

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

دار الحرية للطباعة - بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الأساطير
بغداد
١٩٦٦

دار الخرجية للطباعة

وزن القار الوطنية للنشر والتوزيع والأعلان

العدد ١٠٠ قلد

U

505

13.1
UT